البحث
١

الليل فى الشعر العربى الرومانسى الحديث

دكتور
السعيد محمود عبد الله
مدرس بقسم اللغة العربية
كلية الآداب ـ جامعة المنوفية

أبريل ١٩٩١م

تقدمة

الليل مَعْلم كونى ذو أثر عظيم فى نفوس الناس لا سيما الشعراء منهم . ولئن كان النهار من الناحية الجغرافية قسيم الليل وإلفه فى تعاقبهما المستمر ، فإن لليل بعدا نفسيا أعمق مما للنهار فى صدور الناس على اختلاف إدراكهم ودرجات إحساسهم .

ولعل من الأسباب التى جعلت لليل هذا التأثير القوى فى نفوس الناس أن الإنسان يستغرق نهاره كادحا ساعيا وراء رزقه ، وكل اهتمامه وطاقته موجّه إلى هذه الغاية ، فضلا عن انشغال حواسه وتعلّقها بالكثير من عناصر الوجود التى يُجلّيها النهار ، فإذا جاء الغروب طُمست معالم الكون تحت رداء الليل وساد الصمت فخلد الإنسان للراحة واستيقظت لديه مشاعر كانت راقدة طوال النهار ، وانبعثت ملكة التأمل لتحمله على أجنحة الخيال إلى آفاق بعيدة من الرؤى والتصورات .

وثمة علة أخرى هامة وراء نشاط الخيال وتحرك العواطف مع قدوم الليل ، وهى أن النهار عندما يكشف الغطاء عن عناصر الوجود يُفقدها سحرها بوقوع العين عليها وذيوع سرها ، فإذا جاء الغروب احتواها وطواها وأحالها إلى غيب ومجهول . والمجهول يستثير الخيال ويستفز العاطفة ويبعث على تأمل بعيد الأغوار كثير الرؤى .

وشأن النهار والليل فى هذا شأن الحاضر والماضى مع النفس البشرية ، فروح الإنسان قد لا تجد فى الحاضر الذى تعيشه وتطل عليه مادة إثارة تغريها بالانعطاف على هذا الحاضر فاحصة متأملة ، حتى إذا صار هذا الحاضر ماضيا وغلّفته أستار الزمن ، أقبلت عليه النفس وحوّمت حوله محاولة النفاذ من جديد إلى أعماقه لسبر أغواره واستجلاء مكنوناته

وإننا لنقف أمام الآثار الموغلة فى القدم فى إجلال ودهشة وتأمل أكثر بكثير مما يحظى به منا واقعنا الذى نعيشه وندرك كل ظروفه ونرقب نموه وتطوره يوما بعد يوم . فإذا صار هذا الواقع الذى نشهده ولا نحتفل به غيبا محجوبا عن عيون أحفادنا ، كانت له فى نفوسهم روعة وفي قلوبهم هزة .

ومن منا يمر بمدارج طفولته ومعاهد صباه التى فارقها منذ سنين ، هي قصار فى عمر الزمن فلا تنتابه رعشة ولا تعنف به هزة ، وهو يعود أمامها بذاكرته إلى الوراء مسترجعا

ما كان له فيها من صبوات وأوطار ؟! وهل كان بكاء الشاعر القديم أطلال دياره أو ديار أحبابه سوى لون من الحنين الشاجى إلى الماضي ، والإيغال الروحى فى طياته قبل أن يصبح ذلك تقليدا شعريا يحافظ الشعراء عليه ويحث بعض النقاد القدامى على التمسك به ؟

إن النفس البشرية مولعة باستجلاء الأسرار وكشف الحجب ، فكل ما هو خبئ عاملُ إثارة يبعث علي التخيّل والتصور ، سواء كان هذا المخبوء مستقرا فى أعماق الأمس ورحم الغد أو كان محجوبا خلف ستار الليل .

ولقد تكلم الشعر العربى لاسيما الحديث منه عن الليل كثيرا . ولعل (الليل) لفظا ، وما يرتبط به وما يتفرع عنه من ألفاظ ومعان ، من أكثر ما يطالعنا فى الشعر العربى الحديث إن لم يكن أكثرها جميعا .

ولا ينبغى أن نغفل ما لهذه الكثرة من دلالة هامة وبخاصة عند النقاد الذين يهتمون بالمنهج الإحصائى فى تناول الأعمال الأدبية وأنماط التعبير المختلفة فى الفنون التشكيلية أو الإيقاعية ، فإلحاح الشاعر على استخدام لفظ ما أو عبارة معينة ، يلفت انتباه هؤلاء ، إذ يقبسون منه شعاعا يساعدهم على دخول عالمه الإبداعى والنفسى . ويكون أثر هذه الظاهرة أعمق وفائدتها فى الكشف أعظم متى كانت شائعة فى إبداع جيل ما أو عصر معين . ولا أحب أن أثقل كاهل هذا البحث بالجداول والأرقام ، لأنها برغم أهميتها قد تضفى عليه شيئا من الجفاف المصاحب عادة للتجريد وهو أمر لا يستحب فى مثل هذه الدراسة ذات الطبيعة الأدبية .

وبرغم شيوع (الليل) لفظا وموضوعا فى الشعر العربى الحديث لم أوفق فى العثور على دراسة علمية واحدة تدور حوله ، على كثرةما تم من بحوث وماأنجز من دراسات تناولت موضوعات عديدة قد يكون بعضها أقل أهمية من هذا الموضوع من حيث اتصاله بالإنسان وتعلق النفس البشرية به . وهذا مضافاً إليه ما سبق أن أوضحته من أثر هذا المعلم الكونى الهام فى شحذ النفس وتحريك عواطفها - ما حملنى علي الشروع فى هذا العمل الذى ازددت حماسا له بعد ما رحت أجمع مادته من أوعية الشعر العربي على اختلاف مراحله .

وقد تمخضت قراءتى عن جمع مادة وفيرة تنم عن توجه معظم الشعراء وبخاصة فى العصر الحديث إلى الليل ودورانهم الدائب فى فلكه . وهذه المادة تتوزع إلى موضوعات يمكن جمعها فى فصلين هما :

الأول : الليل وعواطف الإنسان .

الثانى : التوجّه الرومانسى إلى الليل .

ولم ألتزم فى معالجة هذه الموضوعات تسلسلا زمنيا معينا بل رحت أجمع القديم إلى الحديث على سبيل المقارنة أو من أجل إيضاح بعض الجوانب وإبرازها .

الفصل الأول
الليـــل وعواطـــف الإنســـان

قال عز من قائل : " **وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا** " [١] كما قال جل شأنه : " **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب** " [٢] .

فى هاتين الآيتين الكريمتين يتضح جانب من حكمة الله تعالى فى خلق الليل والنهار ، فالنهار للسعى وراء الرزق ، والليل راحة للبدن وسكون للجوارح ، فضلا عما يكون فيه من تعبد لله وتهجّد له ذكره تعالى وهو يصف عباده المتقين بأنهم " **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون** " [٣] . والليل والنهار معا يُمكنّان من حساب الزمن وتقدير الوقت ، ولهذا نفع ظاهر فى حياة الإنسان .

والشعراء يكثرون من ذكر الليل والحديث عنه ، رهبة منه ورغبة فيه . وحديث الرهبة يشيع ويذيع ويعدل حديث الرغبة أضعافا كثيرة وهذا يدل دلالة قوية على ما يبعثه الليل فى صدور الناس من آلام وما يثيره فى أعماقهم من عواصف ومخاوف أكثر مما يحسونه من غبطة لقدومه وطمأنينة بين ذراعيه . ولم لا يكون هذا الإحساس متغلغلا فى النفوس والله تعالى يطلب منا الاستعاذة به من شرور كثيرة من ضمنها ما قد يأتى به الليل من مكاره فقال تعالى : " **قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد** " [٤] كما أن الشعراء ذكروا فيما تحدثوا به عن الليل أنماطا أخرى من السلوك البشرى تتخذ من سكينته عونا ومن ظلامه المطبق ساعدا .

وفى هذا الفصل نبيّن كيف وصف الشعراء على اختلاف عصورهم قدوم الليل وما يرتبط به من انفعالات وأحزان وكذلك ما يشيعه فى بعض الصدور من رضى وسكينة ، فضلا عما يصاحبه من أوجه السلوك البشرى الذي لا يجد فى النهار مرتعا فسيحا ومناخا صالحا . ولقد جمع عبد الرحمن شكرى فى بيتين ما يتنفس به الليل من عواطف وما يتربص بالناس فى تضاعيفه من أخطار ، فقال [٥] :

غير أن الليل أدرى بأحاديث القلوبْ
شِـملة العاشـق والسـارق والعادى المهيـبْ

كما تصف نازك الملائكة ما ينبض به قلب الليل من مخاوف وما يلفه من غموض بقولها : (٦)

الليـل فيه مخـاوف ووسـاوس لا تخمـدُ
أبـدا يزلـزلـه صـراخ غامـض وتنهّـدُ

وفيما يلى نعرض حديث الراغبين عن الليل ثم نقابله بحديث الراغبين فيه من خلال وصف دقيق وصورة فنية بارعة .

أولا : أشـجان الليـل :

من أشجان الليل ما ينبع بداخل النفوس التى أوتيت حظا من رقة الإحساس ورهافة الشعور ، كأنفس الشعراء الرومانسيين ذوى الخيال المستوفز والعاطفة المشبوبة ، فالليل : ظلامه وسكونه يلقى على أصحاب هذه النفوس غالبا ظلالا من الاكتئاب والحزن وقد يكون مثيرا فنيا لكثير من هؤلاء الشعراء . كما أن بعض هذه الأحزان ينشأ أيضا بداخل النفوس المهيأة سلفا لاستنبات الألم ، فأصحابها يستقبلون الليل وهم يعلمون أنْ سيكون لهم فيه حياة أخرى وسياحة غريبة فى وديان العذاب الروحى والألم الممض . والعقاد عندما يقول لليل (٧) :

أتعلـم أيهـا الليـل العصيـبُ بمـا حـوت الجـوانـح والجنـوبُ
طـويـتَ أزمّـة الأجسـاد منّـا فدانـت وانطـوت عنـك القلـوبُ
فما تـدرى ، أتسـكن حين مـالـت إلى تـلك المضـاجـع أم تجـوبُ؟!

يصف ما يكون عليه هؤلاء جميعا بين أذرع الليل التى يقيد بها أجسادهم بينما تنطلق أفئدتهم لتجوب صحاريه الشاسعة . ومن أمثلة هؤلاء : المغترب الذى خلّف وراءه ديارة وأهله لا سيما مَنْ كانت غربته نفيا ، والموتور يتحفّز للثأر والواتر يتربص به عدوه الدوائر والثاكل المُعنّى بفقد الأهل والعاشق الذى أجدبت روحه بوداع الإلف و . . . . . الخ - فهؤلاء يزيد الليل صدورهم حرجا بما يطلق فى وجدانهم من ذكريات وأوهام ، وما يحرك أمام أعينهم من طيوف وأشباح . وقد جمع الشابى بعضا ممن يطلق الليل زفراتهم

المكتومة فى قوله [٨] :

فإذا سـرّني من الفجـر نـور ... سـاءنى ما يُسِرُّ قلبُ الظلامِ
كم بقلب الظلام من أنةٍ تهفو ... بغصّات صبيةٍ أيتامِ
ونشيج مُضرَّم من فتاة ... أبهظتها قوارع الأيامِ
ونواح يفيض من قلب أمٍّ ... فُجعتْ فى وحيدها البسامِ
فطم الموت طفلها وهو نُور ... فى دجاها من قبل عهد الفطامِ
وأنين من مُعدم ذى سَقام ... عضه الدهر بالخطوب الجسامِ

فهؤلاء ممن عضهم الزمان جاء الليل ليثير أشجانهم ويفجر كوامن الأسى فى قلوبهم .

لقد دخل الشعر عالم الليل وجال فى نواحيه الفساح ونقل لنا من داخله صورة دقيقة لمعاناة الإنسان تحت وطأته . ولعلنا نستطيع عرضها واستيفاء ملامحها .

ا لعلاقة العلّية بين الليل والحزن

من أهم وأكثر ما تحدث عنه الشعر العربى علاقة التداعى القائمة بين الليل وثوران الحزن . ولعل النابغة الذبيانى أول من أوضح هذه العلاقة العلية بين الليل وما ينتاب الإنسان من أحزان وما يتضاعف في صدره من هواجس ، كانت مستترة أو كان هو عنها في شغل شاغل طوال النهار . وهذا حيث يقول [٩] :

كلينى لهمٍّ يا أميمة ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطئ الكواكب
(وصدرٍ أراح الليلُ عازبَ همّه) ... تضاعف فيه الحزن من كلّ جانبِ

إذ نراه يُرجع إلى الليل فى البيت الثانى تجميع الهموم على نفسه وردها إليه بعد أن كانت عازبة شاردة . وقد أكثر الشعراء من القول فى هذا المعنى حتى بدا كأنه حقيقة آكدة فعندما وصف قيس بن الملوح حاله فى فراق ليلى حرص على أن يؤكد هذا الأمر قائلا [١٠]:

أقضّى نهارى بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى والهمّ بالليل جامعُ
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا ... لى الليل هزتنى إليك المضاجع

وينبغى أن نولى قوله : " نهارى نهار الناس " اهتماما خاصا ، إذ أراد به التأكيد على خلو باله نهارا من كل ما يعكر الصفو ، ولم يكتف بالإشارة إلى هذا المعنى فى البيت الأول . ولم يخل باله نهارا إلا لأنه يخوض فيما يخوض فيه الآخرون من شؤون عملية تتقوّم بها حياتهم فإذا قدم الليل خلا إلى ذاته ، وكان له معها شأن آخر بين حنين يعتصره وأحزان تتقاطر عليه .

وقدألحَ الشعر فى عصرنا الحديث على إبراز هذه العلاقة السببية بين دخول الليل وجيشان الصدر، فيقول إيليا أبو ماضى : (١١)

ما طـــوْت كارثا يـدُ الصبـح إلاّ نشـــرته لنـا يـدُ الإمســـاءِ

فالصبح يطوى المصائب ويوارى المآسى ، والليل ينشرها ويشرع ما خبأه النهار فى جعبته من سهام الخطوب . أما الشاعر عزيز أباظه فيقول فى وصف حاله بعد رحيل زوجته : (١٢)

يبيـت يُـودع سـمع الليـل عاطفةً ضـاق النهـار بها سـترا وكتمـانا
ويرسـل الشجَو فى سر الدجى حُرَقا لـو الدجـى قُـدّ من صخـر إذاً لانا

فأحزانه يجاهد النهارَ فى سترها وكتمانها ، حتى يجئ الليل ليكشف عنها الحجب ويهتك عنها الأستار . وفي موشح " صقر قريش " يصف أمير الشعراء ما كان يقاسيه عبد الرحمن بن معاوية الملقب بـ (الداخل) من عذاب الغربة وثكل الأهل بعد أن هرب إلى الأندلس نجاة بنفسه من بطش بني العباس ، فلا يفوت الشاعر أن يشير إلى ما بين الليل وعذاب النفس من أواصر ، مستهلا الوصف بقوله : (١٣)

مَنْ لِنضـــو يتـــــنزّى ألمـــا بـــرّح الشـــوقُ بـه فى الغلـــسِ
حـــن للبـــان وناجـــى العلمـــا أين شـــرقُ الأرض من أندلـــسِ ؟!
بلبـــل علّمـــه البـــين البيـــانْ بات فى حبـــل الشـــجون ارتبـــكا
(فى سماء الليـل مخلوع العِنان) ضاقـــت الأرض عليـه شـــبكا

فهذا البلبل أو الفتى الأموى الغريب ، تظل روحه ساكنة هادئة ما امتد النهار حتى يجئ الليل فينخلع عنانها وتنطلق فى سماواته البعيدة ، ترتاد ما تشاء من وديان الهم وأجواء الذكرى . ويستطرد شوقى ليؤكد هذا المعنى بقوله :

نفـــرت لوعتـــه بعـد الهـــدوء والدجـى بيْـت الجـوى والبُرحـا

وعبارة (بعد الهدوء) تعنى الليل : هدوءه وصمته ، وهى عند شوقى ميقات محبب لبكائه وبثّه كلما عَنّ له ما يستحق البكاء وما يستوجب البث كحادثة النفى التى أمضته وجعلته يهتف فى " نونيته " الأندلسية : (١٤)

يا ســارى البرق يرمى عن جوانحنا (بعد الهـدوء) ويهمى عن مآقينـا

أما صلاح عبد الصبور فيصف فى " رسالة إلى صديقة " ما يلقى من ألم العلة وعذاب الليل : (١٥)

فقلبـــــــــــــــه كســـــــــــــــيرْ
وجســـــمه مغـــلل إلى فـراشـــــه الصغـــــيرْ
وبالجـــــراح والآلام قلبـــــــــه كســـــــــيرْ
نهـــــاره ثـــرثـــرة العُـــوّاد والصّحـــابْ
وليلـــه غـرائـــب لـــم يحـــــوها كتـــابْ

وهل يقصد بـ (الغرائب التى لم يحوها كتاب) سوى ما يعنف به من ذكريات ممضة وما يسبح فيه من خواطر دامية ، كان منها فى مأمن إلى أن طالته يد الليل .

وصلاح عبد الصبور فى كثير من شعره يحرص على الربط بين الليل وانبعاث الهموم ، فهو يقول أيضا على لسان قدّيس : (١٦) .

وكـــنت إذا أجـــنّ الليـــل واســـتخفى الشـجيونا
وحـــــــــنّ الصـــــــدر للمرفـــــــق
وداعبـــــــت الخيـــــالات الخليينـــــــا
ألـــوذ بركـــنى العـــارى ، بجنـــب فتيلى المرهـــق
وأبعـــث من قبـــورهـــم ، عظـــاما نخـــرة ورؤوس
لتجلس قرب مائدتى ، تبث حديثها الصيّاح والمهموس
وإن ملّـت وطـال الصمـت ، لا تسـعى بها أقـدام
وإن نُـثِرَتْ سـهام الفجـر ، تسـتخفى كما الأوهـام

فهذا القديس لا يأتنس حين يُجنه الليل بغير مصباحه الكليل وأطياف الموتى يبتعثهم خياله من قبورهم فيحدثهم ويحادثونه ، ولاتنفضّ عنه أشباحهم إلا إذا لا حت نذر الفجر . ولعل هذا هو ما سبق أن ذكره أيضا إبراهيم ناجى فى قوله : [١٧] .

يا نهـــر ، لى جـــذوة بجنبـــى هـادئـــة الجمـــر بالنهـــارْ
فإن دنـــا الليـــل برّحـــتْ بـى وســـاكن الليـــل كـم أثـارْ

وهو ما عبّر عنه جبران أيضا بقوله فى عبارة موجزة " [١٨]

وقد ينشـر الليـل البهيـم منـازعـى على بُسُط أحلامى فيجمعها الفجرُ

وللشاعرة ملك عبد العزيز صراع طويل مع الليل . وهى فى قصيدة " الليل والأحزان " تقف أمامه متسائلة عن سر ما يُترِع به قلبَها من دموع ، وما يوقظه فى حياتها من أحزان . تقول : [١٩]

يا ليـــل ، ياليـــل ، لمـــاذا الدمـــوع
تصبّهـــا ياليـــل فـى قلبـــى
والشـــوق ياليـــل ونـار الـولـــوع
تصبهـــا ياليـــل فى دربـــى
الكـــون أغفـــى والأســـى لاينـــام
والنجـــم ثـــاو تحـــث ســـتر الغمـــام
وفى فـــؤادى جمـــرة تلتـــظى
يعـرفهـــا فى حـــرقـــة قلبـــى
يا ليـــل ، ياليـــل ، لمـاذا خطـــاك
تشـــعشـع الأحـــزان فى خـاطـــوى
وتنشـــر الأحـــلام من عـــالـم
مـكفّـــنٍ بالصمـــت عـن ناظـــرى

وعنوان القصيدة خير ما يشير إلى علاقة التداعى القائمة فى نفس الشاعرة بين الليل والحزن ، وهى علاقة استقرت كما أوضحنا فى وجدان كثير من الشعراء ، حتى كدنا نقول إنه لا مساء لهم بدون حزن ولا حزن لهم إلا في المساء وأن حالهم مع الليل والنهار كحال أبى فراس التى وصف فى قوله : (٢٠)

وإنّىَ فى هـذا الصبـاح لصـالـح ولكنّ خطبـى فى الظـلام جليـلُ

ولعل خير ما ننهى به حديثنا عن العلاقة القائمة بين الليل وما يعتاد الإنسان من شجون ، هذا الوصف للشاعرة فدوى طوقان ، تقول فيه : (٢١)

فى الليـــل ، حـين تُفلـت الأحـــزان من إســـارها
وحـــين وجهنـــــا الأصيـــل يرفـــع القنـــاعْ
تضمـــــه أحـزاننـــــا إلى قـرارهـــــا
تمـر كفهـا على العيـون ، تحصـد النعاس فى العيـون
فيسـتبين العـالم المصـدّع الأركـان فى أعماقنـا
قفـرا كئيـب
أواه يـا معـــركة الأعمـــاق كل أمســـيه
عن وجهنـــا الأصيـــل ترفـــع القنـــاع
وتفلـــــت الأحـــــزان من إســـــارهـا

فالشاعرة ترى الأحزان فى الصباح مكبلة مغلولة ، فإذا جاء المساء أطلقها وفك إسارها وحينئذ تبرز أعماق الإنسان على حقيقتها المتصدعة مثلما يبدو القفر كئيبا قاحلا ، ويظهر وجهه الأصيل عاريا بعد أن سقط عنه فى الليل القناع الذى كان يخفى القاتم من ملامحه ولو لا ضيق المجال لعرضنا أمثلة كثيرة تؤكد هذه الرؤية النفسية التى تركت أثرا عميقا فى إبداع الشعراء .

فرائس الليل

بعد أن مهدنا بإيضاح العلاقة (العلّية) القائمة فى نفوس الشعراء بين الليل والحزن ، أصبح بوسعنا الحديث عن فرائس الليل التى ينكأ بأظافره جراحها .

وشعرنا العربى حافل بصور دقيقة للصراع النفسى الذى يعانيه هؤلاء الذين ذكرنا أحوالهم وغيرهم ممن عدا عليهم الدهر . وهى من الدقة بحيث تلفحنا بزفرات صدورهم وتغرقنا بفيض شؤونهم . وفيما يلى أعرض قليلا من الكثير الذى يضمه هذا المستودع الضخم .

وأول ما نبدأ به حديثٌ عن المغتربين ، ما يختلف عليهم طوال الليل من ألوان الأسى وما يتراءى لهم بين طيات الظلام من طيوف الأهل والخلان . ونكتفى بثلاثة من الشعراء مرّوا بهذه التجربة الأليمة ، أولهم : أبو فراس الحمدانى الذى وقع فى أسر الروم وظل بعيدا عن أهله ووطنه مدة طويلة ، يتلظى بنار الشوق وهوان الأسر ويقوم الليل شاكيا متحسرا . وثانيهم : أمير الشعراء أحمد شوقى الذى صبغ النفى شعره بصبغ نفسى جديد يستمد من تأمل عميق فى الحياة والأحياء واسترجاع الماضى . وأما ثالث شعرائنا ، فهو بدر شاكر السياب أو أيوب كما أسمى نفسه في بعض شعره . وما قرأت لشاعر مغترب شعرا تتقطع له نياط القلب كما قرأت لهذا الشاعر . لقد تكالبت عليه مصائب شتى : مرضه الذى يئس من شفائه وفقره الشديد ، ومفارقته وطنه وأهله بحثا عن دواء لأدوائه .

لقد صهرت كل هذه المحن نفسه وأنطقته فى وصف أوجاع جسده وتباريح روحه من الروائع الشعرية ما يصعب على الباحث أن يفاضل بينه مرجحا كفة قصيدة على أخرى ، ومما يلفت النظر ربط الشاعر المستمر بين الليل والألم وكأن الشيئين وحدة واحدة فى خياله ونفسه .

* من بلاد الروم يطلق الفارس الأسير زفرة حارة ، لعلها تبلغ أمه في (منبج) بالشام فتحس ما يكابده فى ليل غربته الموحش : (٢٢)

مصابى جليلٌ والعزاء جميلُ وظنى بأن الله سوف يُديلُ
جراح تحاماها الأساةُ مخافةً وسقمان : بادٍ منهما ودخيلُ

وأســـر أقاسيـــه وليـــلٌ نجومـه أرى كلَّ شـــيءٍ غـــيرهن يـــزولُ
تطـولُ بى الســاعاتُ وهْىَ قصيرة وفى كل دهـــر لا يســـرُّك طـولُ

وهو حين يشكو تطاول ليله بالهموم فى البيت الأخير ، يقرر أن هذا مجرد إحساس أوجدته المحنة . ولنستمع إليه وهو يُسر إلى الليل بما يعانيه من سهد وبما يعتاده من شواغل والناس هجود : (٢٣)

ياليـــل ما أغفـــل عمـــا بى حبـــائبـــى فيـــك وأحبـــابى
يا ليـــل نـام الناس عن مُوجَـعٍ نـــاء على مضجعـــه نابـــى
هبَّـــتْ له ريـــح شـــآميةٌ متَّـــتْ إلى القلـــب بأســـبابِ
أدَّتْ رســـــالاتِ حبـــيبٍ بها فهمتهـــا من بـــين أصحـــابى

وكيف يهنأ فى الليل بنوم ويغفل لحظة عن واقعة المرير ، والليل نفسه هو الذى يقض مضجعه بما يريه من طيوف الأهل وبما يسمعه من أصوات حبائبه وخلانه ؟ وكيف ينام أيضا وهذه الريح الشآمية قد أتته من قِبل أهله محملة بما يثير شجونه من رسائل الشوق ؟

* وفى المنفى بالأندلس كثر بكاء أحمد شوقى ، وكانت حلكة الليل منطلقة إلى بكاء الذات والتحسر على فراق الأهل والدار ، والاستغراق فى ذكريات ماضيه السعيد : (٢٤)

وســـلا مصر هل ســـلا القلب عنها أو أســـاجرحـه الزمـانُ المؤسّـى
كلمـــا مـــرت الليـــالى عليـه رقّ والعهـــد فى الليـــالى تُقسّـى
مســـتطار إذا البـواخـــر رنّـــتْ (أول الليـــل) أو عـوت بعد جرسِ

فقلبه يهتاج كلما سمع فى الليل صفير باخرة رائحة غادية ، إذ يبتعث هذا الصوت فى نفسه حنينا غامرا إلى ركوب البحر عائدا إلى مصر . ولهذا نجده يخاطب هذا البواخر مستفسرا فى نبرة آسية :

يا ابنـــة اليـــم ما أبـــوك بخيـــلٌ مالـــه مولـــعٌ بمنْـــعٍ وحبْـــس ؟

وفى " السينية " أيضا ، يسرى شوقى فى بيداء الليل مع البرق على جناح الريح ، طاويا الفلوات والبحار إلى مواطن الذكرى بمصر ينظم شرقها بغربها :

رب ليـل سـريتُ والـبرق طِـرفى وبسـاطٍ طـويـت والريـح عَنْسى
أنظم الشرق فى (الجزيرة) بالغرب وأطـوى البـلاد حَـزْنا لِـدهْسِ

فهو من منفاه بالأندلس يسلك شرق (الجزيرة) بغربها كلما أجنّه الليل ويحتويها بعينىْ خياله كما يحتويها النيل بين ذراعيه .

وفى " نونيّته " الشهيرة ، نجد ما يصور أيضا هذا الألم الليلى الذى يعتاده ، وقد حرص الشاعر على تجليته فى عدة مواضع منها ما يخاطب فيه البرق : (٢٥)

الليـل يشـهد لم تهتـك دياجيـه على نيـام ولم تهتـف بسـالينا
والنجـم لم يـرنا إلاّ على قـدم قيـام ليـل الهوى للعهد راعينا
كـزفـرة فى سـماء الليـل حائـرة ممـا نـردّد فيه حـين يضـوينـا

وما يردد فى الليل حين يضويه سوى الأنين والنشيج ، يرقرقان دموعه فى أوعية من أرق الألفاظ كقوله فى وصف ليله الطويل :

(ونا بغـيّ) كـأنّ الحشـر آخـره تُميتنـا فيه ذكـراكـم وتحيينـا
نطـوى دجـاه بجـرح من فراقكمـو يـكاد فى غلس الأسحار يطـوينا
إذا رسـا النجـم لم ترقـأ محاجـرنا حتى يـزول ولم تهـدأ تراقينـا
بتنا نقاسـى الدواهـى من كواكبـه حتي قعـدنـا بها : حسرى تقاسينا
يبـدو النهـار فيخفيـه تجـلُّدنـا للشـامتـين ويأسـوه تأسّـينا

ولعل فى الأبيات من وصف مكابدة الآلام وعنت هذا الليل (النابغىّ) ما يكفى لبيان حال هذا المفرد النائى .

* أما السياب ، ذلك الشاعر المبتلَى بالفقر والداء والاغتراب ، فله مع الليـل شأن آخر فلم يكابد شاعر عربى مشقة الليل - فى نظرى - مثلما كابد ، ولم يعبّر شاعر عن معاناتـه فيـه مثلما عـبّر . ظل طول غربته فى لندن والكويت بحثا عن علاج لعلته - يصوغ من سواد الليل وأحـزانه وأوهـامه درر الشعر . من هذا الشعر قصيدة " سفر أيوب " التى تتشـح بظـلام الليـل ومخاوفـه . يستهل أحد مقاطعها بوصف ما يغشى روحه من

قتام الليل : [٢٦]

البرد وهسهسة النار
ورماد المدفأة الرملُ
تطويه قوافل أفكارى
أنا وحدى (يأكلنى الليلُ)

وهذا القول على قصره استهلال جيد للدخول إلى بيداء الليل بما يناسبها من رؤية قاتمة وللتجوال فيها بخواطر سوداء . ولعل خوف الشاعر من الليل قد تجلى فى الصورة البشعة التى يحملها الشطر الأخير . ولننصت إليه وهو يشكو فى المقطع نفسه إلى الليل ما يعانيه من أوصاب الغربة :

ياليلُ ، لكم طال الدربُ
تعب الركبُ
وعراقى شطٌّ ، وسمارى
ناموا ، وبقيت ولا زاد عندى
وظمئت ولا ماء ، ظمئ القلب
لا سقيا غير شظيات البرق الوارى

ثم يختتم المقطع بما استهله به وكأنه يؤكد بذلك إحساسه تجاه الليل حين يشمله بالهموم والأكدار :

البرد وهسهسة النار
. . . . . الخ

ولم يعنف بالسياب فى ليل اغترابه وعلّته شئ مثلما عنف به (غيلان) طفله الصغير الذى تركه بالعراق فيمن ترك على أمل أن يعود معافى إليه . لقد كان طيفه كلما جن الليل يشق إليه ستور الظلام ويثوى بين يديه متوسلا إليه أن يعود . ولكم كان هذا أشد حدة على نفس الشاعر من أنياب العلة ومشرط الجرّاح . وقد ترك لنا السياب فى وصف نقياه بابنه تحت جنح الليل مشاهد تختلج بعاطفة الأب وتفيض بدموع الابن ، من ذلك قوله :[٢٧]

وإن عسعس الليل نادى صدًى فى الرياح :

" أبى . . . . . يا أبى " ، طـــاف بـــى وانثنـــى

" أبى . . . . . يا أبى "

ويجهـــش فى قـــاع قلبـــى نـــواح :

" أبى . . . يا أبى "

" أبى . . . يا أبى . . . " فى صفـــير القطـــار

" أبى . . . يا أبى . . . " فى صيـــاح الصغـــار

" أبى . . . يا أبى . . . " والـــدجـــى مظلـــم

(وجيكور) خلـف الـدجـى والدروب وخلف البحـار

وجيكور هي بلدة الشاعر التى ما فتئ يذكرها ويحن إليها مع كل ما يذكره ، ويحن إليه .

وفى قصيدة " أسمعه يبكى " يُجرى حوارا دامعا بينه وبين صغيره الذى أطل عليه من خلال سجوف الظلام معاتبا على تركه والتخلى عنه ، غير عالم بالملمة . وهل يعى الصغار شؤون الكبار ؟! : (٢٨)

أســمعه يبـكى ، ينادينـــى

فى ليـلى المســتوحـد القارس

يدعـو : أبى ، كيـف تخلينى

وحـــدى بـــلا حـــارس ؟ ! "

(غيلان) لم أهجرك عن قصد

الـداء ، يا غيـلان أقصـانى

إنى لأبكى مثلما أنت تبكى ، فى الدجى وحدى

ويســـتثير الليـــل أحـــزانى

فـكلما مـر نهـــار وجـــاء

ليـــــل من الـــــبرد

ألفيتنى أحسب ما ظل فى جيبى من النقد :

أيشـترى هذا القليل الشـفاء ؟

وهو فى " غابة الظلام " جوّاب تتفتح أمام عينيه مغاليق الغيوب وتتكشف الأسرار ويرسم لليل فيها صورة وحشية الملامح تعكس ما يحسه تجاهه من رهبة . ولا ينسى أن يُطل من خلال هذه الصورة على العراق : (٢٩)

عينـــــاى من ســـــريرى الـوحيـــــدْ
تحـــــدقـــان فى المـــــدى البعيـــــدْ
الليـــــل وحـــش تطعنـــانـه ، مع النجـــوم
بخنجـريهمـــا وخنجـــــر السَّـــــحرْ
الليـــــل خـــنزيـــر الـــردى العنيـــدْ
يشـــق خنجـــراهمـا إهـــابـه الغشـــوم
لألمـــح العـــراق مـــرّغ القمـــرْ
على تـــرابـه البليـــل ضـــوءه الحـــزيـن

فإذا تمكنّ من شق إهاب الليل الغشوم بعينىْ خياله وأطل على العراق ، ففى العراق (غيلان) لابد أن تكتحل به عيناه :

ومقـــلتا غيـــلان تومضـــان بالحنـــين
يرقـــب من فِراشـــه ذوائـــب الشـــجرْ
أمضّـــه الســـهاد ، عذبتـــه زحمـــة الفِـكرْ
عينـــاه فى الظـــلام تســـريان كالســـنين
بأى حقـــل تحلمـــان أيـــا نهـــر
بعـــودة الأب الكســـيح من قـــرارة الضـــريح ؟

.....

عينـــــاه لظـــــىً وريـــــح
تحـــرق فى أضـــالعى مضـــارب الغَجَـــرْ

ولقد كان السياب فى محنته أحوج ما يكون إلى صدر أمه الرءوم ، فلعله إذا ألقي عليه رأسه واسترجع مع نبضه طفولته الباكرة ، يذهب ما به من السقام ، لا فرق بينه وبين غيلان كل منهما يريد من يرعاه ويحنو عليه وأنّى للرجل بأمه وقد طواها القبر ثم باعدت

بينه وبين قبرها الغربة . ليس ثمة سبيل إليها إلا أن يتسمّع روحها فلعل هذه الروح تسرى إليه مع نسمات الليل : (٣٠)

نسـيم الليـل كالآهـات من جيـكور يأتينـى
فيبـكينـى
بما نفثتـه أمـى فيـه من وجـد وأشـواقِ
تنفّـس قـبرها المهجـور عنها ، قبـرها الباقـى
على الأيام يهمـس بى : " تـرابٌ فى شـراييني "
ودودٌ حيـث كان دمـى وأعـراقـى

فإذا سمعها هتف بها كى تنهض إليه بلمسة شافية تعيد الحياة إلى ساقه الموات :

وكم ناديـت فى أيـام سـهدى أوليالـيه :
أيا أمـى ، تعالى فالمسـى سـاقىَّ واشـفينى

وكان آخر ما قاله السياب وختم به رحلة عذابه الجسدية والنفسية، قصيدة " إقبال والليل " ، صاغها قبيل موته وهو فى مستشفى بالكويت ، وإقبال هى زوجه والأمل الذى يتشبث به ، بل العصا التي يتوكأ عليها فى دروب مستقبله المعتم . ما أكثر ما ناجاها فى أعماق الليل وشكا إليها مرارة نفسه وأوجاع جسده ، وعزاها فى شبابها الذي قُدّر له أن يوأد معه . وعنوان القصيدة ينبئ عن جوها النفسى الذى يهب علينا من أول بيت فيها يقول : (٣١)

وما وجد ثكلى مثل وجدى إذا الدجى تهـاوين كالأمـطار بالهـمّ والسّـهدِ
أحـن إلى دارٍ بعيـدٍ مـزارهـا وزغـب جيـاع يصرخـون على بعـدِ
وأشـفق من صبح سيأتى وأرتجـى مجيئا له يجلـو من اليأس والوجـدِ

ويسترسل الشاعر فيصف حُطام جسده ، ويسأل الليل عن وطنه وولده ورفاقه وزوجه :

يا ليل ، أين هو العراق ؟
أين الأحبة ؟ أين أطفالى ؟ وزوجى والرفاق ؟

ثم يستمنح زوجته على البعد نظرة حانية تسرّى عنه ما به من هم :

يا أم غيـلان الحبيبـة صـوّبى فى الليـل نظـره
نحـو الخليـج ، تصـورينى أقطـع الظلمـاء وحـدى
لـولاك ما رُمـتُ الحيـاة ولا حننـتُ إلى الديـارْ
حبّبـتِ لى سُـدف الحيـاة ، مسحتها بسنا النهارْ

وفى النهاية يختم قصيدته متوسـلاً ، معتذرا عما تلقاه وستلقاه بسببه من قسوة الحياة :

إقبـال مـدّى لى يديـك من الدجـى ومن الفـلاه
جسّـى جراحـى وامسـحيها بالمحبـة والحنـان
بكِ ما أفكر لا بنفسـى : مات حبـكِ فى ضحـاه
وطـوى الزمان بسـاط عرسك والصبى فى العنفوان

ومن أصحاب النفوس المهيأة لتلقى أشجان الليل ، أولئك الذين رزئوا فى الأهل أو فجعوا برحيل الإلف . وقد ارتوى الشعر العربى بدموع غزار سفحها الشعراء على بساط الليل . ولعل متمما بن نويرة وهو يبكى مالكا أخاه : (٣٢)

أرقـت ونـام الأخليـاء وهاجنـى مـع الليـل هَـم فى الفـؤاد وجيـعُ
وهيّـج لى حـزنـا تذكّـرُ مـالكٍ فما نمـت إلاّ والـفؤادُ مَـرُوعُ
إذا عَـبْرة ورّعتُهـا بعـد عـبرة أبت واسـتهلتْ عـبرة ودمـوعُ

أقول ، لعله يصف حال كثيرين لا تعتادهم ذكرى الراحلين من الأهل والخلان إلا تحت قبة الليل السوداء التي تطبق عليهم بالوحشة والصمت . ولنتأمل الأبيات الثلاثة التالية له أيضا فى بكاء مالك ، لنرى كيف أن البكاء قد ارتبط فى نفسه بالليل حين يخيّم السكون وتستقر الأجساد فى المضاجع ، يقول (٣٣) :

وما وجـد أظـآر ثـلاث روائـمٍ رأين مجـرا من حُـوار ومصـرعا
فذكّـرن ذا البـثِ الحزيـن بشـجوه إذا حنّـت الأولى سـجعن لها معا

إذا شـارفُ منهن حنّـت فرجّعـتْ (من الليل) أبكى شجوها البُركَ أجمعا
بأوجـدَ منّى يـوم فارقـتُ مالـكا وقـام به الناعـى الرفيـع فأسـمعا

فالأظآر التى يقارن نفسه بها فى الحزن لا تقيم هي الأخرى المناحة على من فقدتْ إلا فى أعماق الليل .

ويصف أبو ذؤيب الهُذلى فى مرثيته الشهيرة نبو المضجع به وما يتجدّد عليه فى سكون الليل لفقد بنيه من حسرة ودموع : (٣٤)

قالت أميمـة : ما لجسـمك شـاحبا منذ ابتذلـتَ ومثلُ مالك ينفـع ؟
أم ما لجسـمك لا يلائـم مضجعـا إلا أقـض عليـك ذاك المضجـع ؟
فأجبتهـا : أمّـا لجسـمى إنـه أودى بنـىَّ من البـلاد فودّعـوا
أودى بنـي فأعقبـونى حسـرةً (بعد الرقـاد) وعـبرةً ما تقلـع

وفى الشعر العربى الحديث تكثر الشواهد . وبكاء عزيز أباظة لفراق زوجته مشهور ويشغل ديوانه (أنات حائرة) . ويصف إيليا أبو ماضى ما يختلف عليه لموت أخيه طوال الليل من أحزان فيقول : (٣٥)

يـذود الدمـع عن عينـى كـراها وتأبـى أن تفـارقـه الجفـونُ
لقد طـال السـهاد وطـال ليلـى فـلا أدرى الرقـادَ متـى يكـونُ
كأن الصبـح قد لبـس الدياجـى عليـك أسـى لـذلك ما يبـينُ

ولعل فى الوصف التالى للشاعرة فدوى طوقان ما يكفى للتدليل على هذه الظاهرة النفسية فى الإبداع الشعرى تقول : (٣٦)

بليـل الشـجون وعمـق السـكونْ
تمـر أمـامى كحـلـم سـرى
طيـوف أحبـاى تحـت الثرى
فـترعـج نـارى خلـف الرمـادِ
ويغـرق سـيل الدمـوع وسـادى

فسكون الليل يشحذ خيالها لينبش قبور أحبائها ويبث طيوفهم حول فِراشها فلا يسكن لها جنب ولا يرقألها جفن . وقد عرضنا لها من قبل وصفا جيدا لما تلقاه من عذاب روحى كل مساء .

ومن فرائس الليل التى يبث فى نفوسها الرعب (قابيل) ممثلا فى كل من اقتفى أثره فى إزهاق الأرواح البريئة ، فصرخة (هابيل) تملأ أذنيه فى هدأة الليل وشبحه يطارده ويسد عليه المنافذ . وهو كما وصفته الشاعرة نازك الملائكة : (٣٧)

عبثا يطـرد الجـريمـة والمقتـولَ عـن ذهنـه الأثيـم المسـيءِ
كلمـا قاتـل الأسـى عـاودته (فى الدجى) صرخُة القتيل البرئِ

ومنهم الآثم الذى اقترف الذنب وينتظر أن يُبطَش به . لكنه لايدرى : متى ؟ ومن أين ؟ وكيف ؟ فيظل كالنابغة الذبياني خائفا يترقب أن تطوله يد النعمان بن المنذر على ما يفصل بينهما من جبال وفلوات . والصور التى وصف فيها النابغة خوفه من بطش النعمان وصف صادق لإحساس كل آثم يتهدده العقاب وشديد النَكال ، يقول (٣٨)

وعيـد أبى قابـوس فى غـير كنهـه أتانى ودونـى راكـس فالضواجـعُ
فبـتّ كأنى سـاورتنى ضئيـلة من الرقـش فى أنيابهـا السم ناقـعُ
يسـهّد من ليـل التمـام سليمها لحـلْى النسـاء فى يديهـا قعاقـعُ

فيشبه نفسه حين يأوى لفراشه بمن لدغته أفعى خبيثة السم فظل مسهدا طول الليل يستفزه الصوت الخافت حتي الحلى فى أيدى النساء . وهو فى موطن آخر يقدم لذلك أيضا صورة لا تقل جودة ، حيث يقول : (٣٩)

أتانـى ، أبيـت اللعـن أنك لمتنـى وتلـك التى أهتـم منها وأنصـبُ
فبـت كأنّ العائـدات فـرشـن لى هراسـا به يُعلى فِراشـى ويقشُـبُ

إذ جعل مرقده مفروشا بالشوك فكلما هم لنوم أصيب بوخزه فانتفض جنبه وتأرق جفنه

طـول الليـل

كان طبيعياً أن يشكو هؤلاء الذين أرهقهم الليل طوله وأن يتمنوا سرعة زواله لتهدأ

نفوسهم وتستريح خواطرهم بطلوع النهار ، هذه اليد الحانية التى تمسح عن نفوسهم غشاوة الليل وأكداره . وقد ظهر فى وصف تطاول الليل وثقل خطوه أوصاف كثيرة منها الطريف المبتكر ومنها ما جاء متأثرا بخيال القدامى وما تركوه فى ذلك من صور .

ولعل أجمل ما يقابلنا لذلك فى الشعر القديم قول امرئ القيس فى شكوى الليل : (٤٠)

وليل كموج البحر مرخٍ سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بأمراس كتان إلى صم جندل

فقد وصف امتداد الليل وثقل خطوه فى صورتين جيدتين . ثم توالت بعده الشكوى وكثرت الصور . فهذا هو بشار بن برد يتساءل وقد استبد به الضجر وبلغ به اليأس مداه : (٤١)

خليليّ ما بال الدجى لا تزحزح ؟! وما بال ضوء الصبح لا يتوضّح ؟!
أضل الصباح المستنير سبيله ؟ أم الدهر ليل كله ليس يبرح ؟!
كأن الدجى زادت وما زادت الدجى ولكنْ أطال الليل هم مبرّح

ولعله فى البيت الأخير قد أعاد فى أذهاننا المعنى الذي سبق أن وقفنا عليه فى قول أبى فراس :

تطول بى الساعات وهى قصيرة وفى كل دهر لا يسرّك طول

مؤكدا بذلك أن طول الليل مجرد إحساس ينبع فى النفس المثقلة بالهموم والمرهقة بالشواغل . وليس من العجيب أن يشكو بشار وغيره من الشعراء العميان ظلام الليل ويتوقون إلى انكشافه عن شعاع من النور مع أن عيونهم لا ترتوى منه ودهرهم - على حد تعبير بشار - (ليل كله ليس يبرح) ، فهؤلاء عندما يتحدثون عن الظلام والليل يقصدون ما يصاحبهما من سكون وصمت تستوحشهما النفس . وعندما يذكرون النهار ويتوقون إليه لا يقصدون نوره بل ما يلازمه من مظاهر للحياة تقتحم على الإنسان عزلته وتخرجه من تفرده المؤلم مع ذاته .

ويستنهض العباس بن الأحنف الرقود من حوله لمساعدته على احتمال قسوة الليل ، ثم لا يعبّر صراحة عن طوله وإنما يومئ إلى ذلك فى عبارة طريفة : (٤٢)

أيها الراقدون حولى أعينو نى على الليل حسبة وائتجارا
حدثونى عن النهار حديثا أوصفوه فقد نسيت النهار

أمّا جَعْلُ الليل ممتدا إلى يوم الحشر وقيام الساعة فوصفٌ شاع فى الشعر القديم وانتقل إلى الحديث ، ومنه قول الحصرى القيروانى ذائع الصيت :

ياليل الصب متى غده ؟ أقيام الساعة موعده ؟!

وقول شوقى : (٤٣)

وليل كأنّ الحشر مطلع فجره تراءت دموعى فيه سابقة الفجر

ولقد صار قول النابغة الذى ذكرناه من قبل فى وصف قسوة الليل وطوله عَلَماً عند كثير من الشعراء يوصف به كلُّ ليل طويل ممض ، فنجد شوقى يقول : (٤٤)

(ونابغىٍّ) كأنّ الحشر آخره تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا

كما نجد العقاد يسمى إحدى قصائده بـ (ليلة نابغيّة) . (٤٥)

ومن الطريف الذى يقابلنا فى وصف طول الليل ، قول حافظ إبراهيم : (٤٦)

يا ساهد النجم هل للصبح من خبر إنى أراك على شئ من الضَجرِ
أظن ليلك مذ طال المقام به كالقوم فى مصر لا ينوى على سفرِ

فقد شبه الليل فى عدم تزحزحه بالاحتلال الإنجليزى الجاثم فوق صدر مصر .

ومن الطريف أيضا قول إيليا أبى ماضى : (٤٧)

حولى إذا أرخى الظلام سجوفه ليلان : ليل دجى وليل شكوك
تمتد فيه بى الكآبة والأسى مثل امتداد الحرف بالتحريك

ومما جاء في وصف طول الليل وبعد من وثبات الخيال وإن لم يكن فى مقام التبرم منه قول حافظ إبراهيم : (٤٨)

طال الحديث عليكم أيها السمر ولاح للنوم فى أجفانكم أثرُ
وذلك الليل قد ضاعت رواحله فليس يُرجى له من بعدها سفرُ

فمن التعليل الخيالى الجيد تصوره الليل مسافرا ضاعت راحلته فانقطعت به سبل العودة إلى دياره وأهله وظل مقيما لا يبرح مكانه ،

ولعلنا في ختام الحديث عن مخاوف الليل وأحزانه نستطيع تجميع ملامح الصورة الكئيبة التى استقرت لليل فى نفوس كثير من الشعراء وبلورة إحساسهم بها من خلال

النصّين التاليين :

أما الأول فهو لحافظ إبراهيم يصور حاله حين يهم بدخول الفراش : (٤٩)

لو تنظرين إليه فى جوف الدجى متململا من هول ما يتجشم
يمشى إلى كنف الفراش محاذرا وَجِلا يؤخّر رجله ويقدّم
يرمى الفراش بناظريه وينثنى جزعا ويُقدم بعد ذاك ويحجم
فكأنه واليأس ينشف نفسه للقتل فوق فراشه يتقدّم

وهل من هلع أشد من رعب الإنسان الذي يساق إلى النطع لحزّ رأسه ؟!

وأما الثانى فهو لصلاح عبد الصبور من قصيدة بعنوان : " رحلة في الليل " ، وفي العنوان ما يشف عما فى مضمون النص من نوازع النفس يقول : (٥٠)

الليل يا صديقتى ينفضنى بلا ضمير
ويطلق الظنون فى فراشى الصغير
ويثقل الفؤاد بالسواد
ورحلة الضياع فى بحر الحداد

ولعلنا نتوقف أمام الفعل العنيف (ينفضنى) لنحس قيمته التعبيرية وطاقته التصويرية فى وصف عنف هذا الليل ومكابدة الشاعر فيه .

* * *

ثانيا : عشاق الليل

وفى مقابل ما ذكرنا من مخاوف الليل وأحزانه نجد الليل ملاذا آمنا وصدرا حانيا لبعض الناس ، أسبابهم به موصولة وصفاؤهم لا يتحقق إلاّ فيه . وقد أطلقتُ على هؤلاء لقب (عشّاق الليل) مقتبسا إياه من الشاعرة نازك الملائكة التي كانت تلقب نفسها بـ (عاشقة الليل) ، كما أسمت ديوانا كاملا وإحدى قصائده بهذا الاسم أيضا تأكيدا علي ما فى نفسها لليل من حب غامر .

ولعلنا نستطيع توزيع محبى الليل إلى طائفتين ، أولاهما : أهل العشق مَنْ كان منهم فاجرا متعهرا كامرئ القيس يتحيّن قدوم الليل ليدب إلى مأثمه ويطرق فى الظلام أخبية النساء ، أو من كان عف النفس يقنع من محبوبته باللقاء يجدد به الأمل ويحي به موات النفس . والليل يساعد هؤلاء جيمعا علي بلوغ المآرب وتحقيق المطالب .

يقول امرؤ القيس لعنيزة : (٥١)

فمثلك حبلى قد طرقتُ ومرضع فألهيتُها عن ذى تمائم مُحولِ

والطروق هو الإتيان ليلا ، وما كان باستطاعة امرئ القيس أن يُقدِم على فعلته فى بيئة عارية إلاّ متلفعا برداء الليل الذي يقيه خطرا محققا إذا انكشف أمره وافتضح سره . وهو نفسه يشير إلى هذا في القصيدة نفسها حيث يقول :

وبيضة خدر لا يُرام خِباؤها تمتعتُ من لهو بها غيرَ مُعجَل
تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا عليّ حراصا لو يسرّون مقتلى
إذا ما الثريا فى السماء تعرّضتْ تعرّض أثناء الوشاح المفصّل
فجئت وقد نضّت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضّل
فقالت يمين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

فليس باستطاعته أن يأتى صاحبته ويتمتع من لهو بها (غير معجل) إلا فى جوف الليل حين تتعرض الثريا وسط السماء .

كما يذكر المتنبى ما يختلسه من زيارة سريعة لمحبوباته فى مضارب البدو فيقول : (٥٢)

كم زورة لكَ فى الأعراب خافيةٍ أدهى - وقد رقدوا - من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

فسواد الليل يحنو عليه ويساعده على بلوغ مأربه ، أما الصبح فيفشى سره ويذيع أمره .

ومن جميل ما عبر به الشعراء عما بينهم والليل من ألفة ما حدّث به ابن زيدون (الولادة) باكيا ما كان بينهما من وصل طوت صفحته الأيام يقول : (٥٣)

يا جنة الخلد أُبدلنا بسلسلها والكوثر العذب زقّوما وغسلينا
كأننا لم نَبت والوصل ثالثنا والسعد قد غض من أجفان واشينا
سرّان فى خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

ولا شئ أخفى من السر المكتن فى خاطر الإنسان ، ليصوّر به احتواء الليل هذين الحبيبين بعيدا عن أعين الرقباء ، فإذا جاء النهار أفشى هذا السر وطيّره .

ومن الصور الشعرية الجيدة التى وصفت لقاء الحبيبين فى خباء الليل وأنسهما به ، ما جاء بقول أبى فراس : (٥٤)

قضانى الدين ما طله ووافى إليّ بها الفؤاد المستطارُ
فبت أُعِلُّ خمرا من رُضاب لها سكر وليس لها خُمار

إلى أن رق ثـوب الليـل عنـا وقالـت : قم فقـد بـرد السـوار
وولت تسـرق اللحظـات نحـوى على فَـرَقٍ كما التفـت الصّـوار
دنا ذاك الصبـاح فلسـت أدرى أشـوق كان منـه أم ضِـرار
وقد عاديـت ضـوء الصبـح حتى لطـرفـى عن مـطالعـه ازورار

وقد برع فى تصوير ما انتاب حبيبته من فزع حين أحست برودة سوارها فقد كان هذا نذيرا ببزوغ الفجر وتبديد الشمل وذيوع السر . أما البيتان الأخيران فيعكسان صورة النهار الكالحة كما استقرت ملامحها فى نفوس العاشقين ، لأنه يطلع عليهم فيهتك من حولهم ما نسجته أنامل الليل الحانية من سكينة كما يفتح عليهم ما كان مغلقا بالليل من نوافذ الوشاة وأعين الرقباء .

ومن الشعر الحديث الذى وصف تعلق المحبين بالليل - وهو كثير يتسع على الحصر -قول شوقى يذكّر غاب بولون فى فرنسا بما كان له فى جنباتها من أوطار : (٥٥)

هـلاّ ذكـرتِ زمـان كنـا والزمـان كمـا نريـدْ
نطـوى إليكِ دجـى الليـالى والدجـى عنـا يـذودْ
فنقـول عنـدك ما نقـول وليـس غـيرك من يعيـدْ

وقول إيليا أبى ماضى يصف تجشمه الأهوال فى مسراه إلى حبيبته تحت جنح الظلام (٥٦)

أسـرى إليها وجنـح الليـل مضطرب كأنـه مشـفـق ألاّ ألا قيهـا
والشوق يدفعـنى والخـوف يدفعـنى هـذا إليهـا وهذا عن مغـانيهـا
أطوى الدياجى وتطوينى على جـزع تخشى افتضاحى وأخشى الصبح يطويها
فما بلغـت مغـانى من شـغفتُ بها إلاّ وقد بلغـت نفسـى تراقيهـا

فالليل صديق حميم يصاحبه فى رحلته ، يخفيه ويخشى عليه من أن يخيب مسعاه أو يُفتضَح أمره . ثم يصف الشاعر لحظة الفراق وكيف باغتهما الفجر فأزعجهما عما كانا آخذين فيه من حديث الهوى وهيام العاشقين :

باتـت تكلمنـى منهـا لواحظهـا بمـا تُكِـنّ وأجفـانى تناجيهـا
حتى بـدا الفجـر واعتلت نسـائمه وكـاد ينشـر أسـرارى ويفشـيها
بكـت دموعا وأبكتنى الدموع دما ورحـت أكتم أشـياء وتبـديهـا

ومن الطبيعى - والنهار يفرق الشمل ويفشى السر - أن يصرّح هؤلاء بسأم نفوسهم منه

ولا عجب فى أن يقول أبو فراس فيما مرّ بنا :

وقد عاديت ضوء الصبح حتى لطرفى عن مطالعه ازورار

أو يقول فى موضع آخر : (٥٧)

فيا ليل قد فارقت غير مذمّم ويا صبح قد أقبلتَ غير حبيبِ

فالنفس تصدف بفطرتها عن كل ما يقف حائلا دون رغائبها . وهذا هو أمير الشعراء يُبدى من الإحساس تجاه النهار ما أبداه أبو فراس ، فيقول : (٥٨)

لو رأونا والهوى ثالثنا والدجى يُرخى علينا الحجبا

فى جوار الليل فى ذمّته نذكر الصبح بألا يقربا

بينما يستوقف علي محمود طه ساعات الليل لينعم وقتا أطول بوصال حبيبته : (٥٩)

صِحتُ بالليل إلى أن أشفقا فليقف نجمك ولينأ السَحرْ

جدد العشاق فيك الملتقى وحلا الهمس على ضوء القمرْ

وهو فى استيقافه عجلة الزمن عن المسير يذكّرنا بنبى الله يوشع بن نون الذى كان يحارب أعداءه وأوشك أن يجهز عليهم ، فإذا الشمس تميل للغروب ، فيضرع إلى الله كي يؤخر الغروب حتى يتم له الظفر بعدوه .

ويتمنى إبراهيم ناجى أن يظل ليلهما بلا صباح يطلع عليهما فيبدد شملهما : (٦٠)

يا لها من حقبة كانت على قصرٍ فيها كآماد فساحْ

نتمنى كلما طابت لنا أن يظل الليل مجهول الصباحْ

ويتضح إحساسه تجاه الليل أكثر في قوله يصف ما آل إليه أمرهما من فراق : (٦١)

وانتبهنا بعد ما زال الرحيق وأفقنا ليت أنّا لا نفيق

يقظة طاحت بأحلام الكرى وتولّى الليل والليل صديق

وإذا النور نذير طالع وإذا الفجر مطل كالحريق

فالليل (صديق) والنور (نذير) والفجر (حريق) وكلها أوصاف دالة على ما قرّ فى وجدان الواله الذي ينعم بالوصال من شعور بالمودة تجاه الليل وضغن تجاه النهار .

وأما الطائفة الأخرى التى تتلهف على رؤية الليل وتترقب قدومه فتضم نفوسا لا تحس توافقا مع النهار لاسيما نهار المدينة الملئ بالصخب والسعى الدائب المرهق من أجل العيش وغير ذلك من مظاهر الحياة المادية الجارفة وهى أمور تقطع حبال التأمّل وتقضى على سبحات النفس وسكينتها ، فتحس نفوس كثيرة بالاختناق والضياع

والتشتت فى وهج هذا العالم المضطرب .

والليل بالنسبة إلى هؤلاء مرفأ هادئ حانٍ ينهون عنده رحلة عذابهم اليومى وسلكٌ ينتظم أشلاءهم التي بعثرها النهار . فيه يتوحدون مع ذواتهم وفيه تورق نفوسهم التى أجدبها النهار وأرهقها الصراع من أجل العيش . إنه صديق حميم يحنو عليهم يأتيهم فينصت إلى شكواهم ثم يضمد جراحهم ويزودهم بزاد جديد يستكملون به رحلة الحياة الشاقة . يقول إيليا أبو ماضى : (٦٢)

مكانىَ الهادئ البعيد كن لى مجيرا من الأنام

قد أمّك الهارب الطريد فآوه أنت والظلام

ولا نكاد نجد فى الشعر القديم من نضمّه إلى هذه الطائفة ، فما قرأناه من دواوين هذا الشعر وهو كثير لا يجلو لنا هذا الإحساس ، بينما تكثر شواهده فى الشعر العربى الحديث لتعقّد الحياة المعاصرة المصاحب لتطورها الحضارى .

وقد يثير الليل دموع هؤلاء ، لكن هذا البكاء شفاء لصدورهم ينفّس عنها ما تضيق به فما أشبههم وهم جاثون أمامه ، بالابن يبكى بين يدىْ أبويه ، وبالخل يفضى إلى خله بما يؤرقه من سر فيسرّى عنه . يقول ناجى فى القصيدة نفسها :

يأيها الليل جئتُ أبكى وجئت أسلو وجئت أنسى

طال عذابى وطال شكّى ومات قلبى وما تأسّى

ويرى الليل صدرا حانيا يضم إليه كل المساكين والمستضعفين الذين أرهقتهم الحياة وأعوزتهم الحيل : (٦٤)

ويضمنا الليل العظيم وما كالليل مأوى للمساكين

بينما يهرع رفيق الناى إلى الليل محتميا بدثاره من عيون النهار التى تلاحقه وتبث الفزع فى نفسه ، فالليل خله الوفى وملاذه الآمن : (٦٥)

يا ليل يا سر الحيا رى والسهارى العاشقينْ

جاء الشريد إلى حما ك يحثه الألم الدفينْ

يا ليل يا ثوب العرا ة ويا أمان الخائفينْ

جاء الطريد إلى دجا ك مهرولا خوفَ العيونْ

ضوء النهار يُخيفه ولديك مرقده الأمينْ

فانشر جناحك فوقه وانصت إلى الناى الحزينْ

وافســـح لـــه القلـــب الـــذى لا يســـتحيل ولا يخـــونْ

ويذكر فى القصيدة نفسها أن الكون لا ينفسح لخطواته إلاّ فى ظلام الليل ، فإذا جاء الصباح ضاق الأفق فى وجهه وعجزت قدماه عن المسير ، فقبع يندب حظه حتي يهمس الليل من جديد فى أذنيه ويتراءى لعينيه :

يا ليـــل جـــاء مهـــرولا مَنْ فى الصبـــاح بـــلا قـــدمْ
فالأفـــق منبســـط لـــه حتـــى تـــودّعـــه الـــظُلَـــم
فيظـــل ينـــدب حظّـــه يقتـــات من جُـــب العـــدمْ
حتـــى يـــراك فينتشـــى ويصـــوغ معســـول النغـــمْ

وواضح أنها رؤية نفسية محض إذ لا تنفسح جنبات الكون إلا فى وضح النهار عندما تُرفَع من أمام الباصرة أستارُ الليل وحوائله .

ويتكرر هذا الإحساس تجاه الليل والنهار فى النص التالى لصلاح عبد الصبور وقد عبّر عنه فى شعر كثير له . يقول : (٦٦)

النـــور عمـــلاق يـــزلـــزل هـــدأتى ويهـــد أمنـــى
ويُـــرينـــىَ المهـــوى العميـــق لرحلـــتى فـــيريـــع ظنـــى
ياليـــل ، يا راحـــى ومصبـــاحـــى وأفـــراحـــى وكِنـــى
أبعـــد رمـــاح النـــور عنـــى
يا وحـــدتى ! الليـــل راح . لابد من خـــوض الصبـــاحْ
لابد من خـــوض الصـــباح إلى الجـــراح ، إلى النـــواحْ
ماذا بوســـع النازلـــين إلى الصبـــاح بلا ســـلاح ؟!
يا وحـــدتى ! الليـــل راحْ

فالنهار يرتبط فى نفس الشاعر بالفزع والجراح لعجزه عن خوض غماره ومصارعة أمواجه ، بينما يرتبط الليل فى وجدانه بالأمن والسكينة ، لأنه ينتشله من هذا البحر العاتى ويلملم أشلاءه المبعثرة على شعاب النهار . وتجدر الإشارة إلى استغاثة الشاعر بالليل : (أبعد رماح النور عنى) فهى تحمل الصبغ الشعورى الذي رأيناه من قبل فى الشطر الثانى من قول ناجى :

فـــإذا النـــور نـــذيـــرٌ طـــالـــع وإذا الفجـــر مُـــطَلٌ كالحـــريـــق

ومن أدق ما قيل فى وصف هذا الشعور قصيدة أرجوحة الحَدَر للشاعرة ملك عبد العزيز

والاجتزاء بشئ من هذه القصيدة أمر يشق عل الباحث ، ولكنها الضرورة ، تقول [٦٧]

ويعـــــود بـــى وهـــــج الصبـــــاحْ
سِـــكّينه الشـــحذاء تنحـــت فى الجـــراحْ
فى الليـــــل كنـــــتُ خبـــــأتُهـــا
فى ثـــــوبـه الضـــــافى العتيـــــقْ
ورتقـــت أثـــوابى المهـــرأة الرقيقـــه
رقّعتهـــــا بـــــرؤى الســـــكينه
ولمـــــت جـــرحـــا نـــازفـــا
أســـــكتـه حتـــى الصبـــاح
عـــــــاد الصبـــــــاح
ســـكينه الشـــحذاء تنحـــت فى الجـــراح
يا من يُغيّـــب وجهـــه الصـــلد الصفيـــق
ويعيـــد وجـــه الليـــل ، حضـــن الليـــل
يخبـــئ منكبـــىّ بثوبـــه الضـــافي العتيـــق

وهذا التصوير الدامى لفعل النهار بالنفوس المرهفة التى لا تحس بالسكينة إلا فى أحضان الليل - من أعنف ما مربى ، وما الأثواب المهرّأة الرقيقة التي ترقعها الشاعرة بسَكينة الليل ، إلا نفسها المرهفة وإحساسها الرقيق الذي يمزقه النهار كلما أصلحته أنامل الليل ورتقت أطرافه . ولهذا نجدها فى نهاية القصيدة تهيب بالليل وتضرع إليه :

يا ليـــل يا بحر الســـكينة يا نـــداء المرهقـــين
أســـدل علىّ رداك ، طيّب جرحى المنزوف فى لذع الألمْ
فى الصبـــــح يقهـــــرنى الصقيـــــعْ
وأدور وحـــدى فى غيـــابـــات القطيـــعْ
الليـــل أدفـــألي وأحنـــى ، مَنْ يعيـــدْ
أرجـــــوحـــة الخـــــدر العميـــــق
فى ســـاعديه وثـــوبه الضـــافى العتيـــق ؟!

ويعبّر رفيق الناى عن الإحساس نفسه فى صورة أخرى يلوذ فيها بحمى الليل من جند النهار الذين يطاردونه ويجدّون فى طلبه : [٦٨]

يا ليـــل يا فيـــض الأمـــا ن فـــررتُ من قـــدرى الرهيـــبْ
حطّمـــتُ قضبـــان الصبـــا ح خدعـــت حارســـها الكئيـــبْ
كـــم ظـــل يطلبـــنى ، يـــطا ردنـــى يـــزمجـــر فى الـــدروبْ
حتـــى اســـــتترت بـــكـــلّة ألقـــت بهـــا كـــف الغـــروبْ
فامـــــدد يديـــــك ، تلقّنـــى خـــذنى لصـــدرك يا حبيـــبْ

ولقد كتب جبران خليل جبران تحت عنوان « أيها الليل » مقارنا بينه وبين النهار ومبينا تعلّق كثير من الأفئدة به . وأنا إذ أقدم من هذا النص أسطرا قلائل أشبه بمن يقتطف زهرة ليدلل بها على جمال روضة ، يقول لليل : " أنت ظلام يرينا أنوار السماء ، والنهار يغمرنا بظلمة الأرض ، أنت أمل يفتح بصائرنا أمام هيبة اللانهاية والنهار غرور يوقفنا كالعميان فى عالم المقاييس والكمية . أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة فى الفضاء العلوى ، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك المقاصد والغرائب .أنت عادل يجمع بين جنحى الكرى أحلام الضعفاء بأمانى الأقوياء ، وأنت شفوق يُغمض بأصابعه الخفية أجفان التعساء ويحمل قلوبهم إلى عالم أقل قساوة من هذا العالم . بين طيات أثوابك الزرقاء يسكب المحبون أنفاسهم وعلى قدميك المغلفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم . وفى راحتيك المعطرتين بطيب الأودية يضع الغرباء تنهدات شوقهم وحنينهم ، فأنت نديم المحبين وأنيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين . فى ظلالك تدب عواطف الشعراء وعلى منكبيك تستفيق قلوب الأنبياء وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين . فأنت ملقن الشعراء والموحى إلى الأنبياء والموعز إلى المفكرين والمتأملين . . . الخ [٦٩] .

والسطران الأخيران يشيران إلى ما لليل من أثر فى شحذ قرائح المفكرين وتحريك أخيلة المبدعين . وهذا موضوع هام قد يجد فيه علماء النفس مادة صالحة للبحث العلمى .

ولقد عبّرت الشاعرة نازك الملائكة عن أثر الليل فى تهيئة نفسها للإبداع وجعلها أكثر شفافية فقالت : [٧٠]

إن أكـن عاشـقة الليـل فكأسـى مشـرق بالضـوء والحـب الوريـقِ
وجمـال الليـل قد طهّـر نفسـى بالدجى والهمس والصمت العميقِ
أبدا يمـلأ أوهـامـى وحسّـى بمعـانى الـروح والشـعر الرقيـقِ
فدعـوالى ليـل أحـلامى ويأسى ولـكُم أنتـم تباشـير الشـروقِ

وهذا التهيؤ النفسى الذى أشارت إليه هو ما يعين على الإبداع الفنى بعامة.

وقصيدتها " ثورة على الشمس " صدىً لارتباطها الروحى بالليل وتعلقها بعالمه الساحر صمته وظلامه وإلهامه : (٧١)

الليـــل ألحـــان الحيـــاة وشـــعرها ومـــطاف آلهـــة الجمـــال الملهـــمِ
تهفـــو عليـــه النفـــس غير حبيسـة وتحلـــق الأرواح فـــوق الأنجـــمِ
كـــم ســـرت تحت ظـلامـه ونجـومه فنســيت أحـــزان الوجـــود المظلـم
وعلى فمـــى نغـم إلهـــى الصـــدى تلقيـــه قافلـــة النجـــوم على فمـى

وفيها أيضا تعبّر عن نفورها من الشمس التى تصهر عواطفها وتمزق أحلامها وتبعثر ما ينسجه الليل من طيوف جميلة حولها :

يا شمس ، أما أنت . ماذا ؟ ما الذى تلقاه فيـــك عواطفى وخواطـــرى ؟
لا تعجبى أن كنتُ عاشقة الدجـــى يا ربـة اللهـب المذيـب الصاهـــرِ
يا من تمـــزّق . كل حلـم مشـــرق للحالمـــين وكلَّ طيـــف ســـاحرِ
يا من تهـــدّم ما يشـــيده الدجـــى والصمت فى أعماق قلـب الشـاعر

ثم تعلن فى نبرة ثائرة متمردة أنها لم تعد فى حاجة إليها ، فحسبها نجوم الليل تؤنس وحدتها وتسكب الألحان فى روحها :

لا تنشـرى الأضـواء فوق خميلتى إن تـشرقى فلغـير قلـبى الشـاعر
ما عـاد ضـوؤك يسـتثير خوالجـى حسـبى نجـوم الليـل تلهم خاطرى
هنّ الصديقـات السـواهر فى الدجى يفهمـن روحـى وانفجـار مشـاعرى
الخ . . . . .

فنفسها الشاعرة لا تحس فى وهج الشمس قوى ملهمة تطلق عنانها وتستنطق لسانها .

* *
*

هوامش الفصل الأول

١ - سورة النبأ ، الآيات : ٩ - ١١

٢ - سورة الإسراء ، الآية : ١٢

٣ - سورة الذاريات ، الآيات : ١٧ - ١٨

٤ - سورة الفلق

٥ - عبد الرحمن شكري ، ديوان شكرى ، جمع وتحقيق نقولا يوسف ط ١ (الإسكندرية : منشأة المعارف سنة ١٩٦٠ م) ص ٣٣ .

٦ - نازك الملائكة ، ديوان نازك الملائكة مج ١ ط ٢ (بيروت : دار العودة سنة ١٩٨١ م) ص ٥٥٩

٧ - عباس محمود العقاد ، ديوان العقاد (بيروت المكتبة العصرية - بدون تاريخ) ص ٣٠٥

٨ - أبو القسم الشابى ، ديوان الشابى تقديم د . عز الدين إسماعيل (بيروت : دار العودة سنة ١٩٧٢ م) ص ١٩٤

٩ - النابغة الذبياني (زياد بن معاوية) ديوان النابغة الذبيانى تحقيق محمد أبو الفضل (القاهرة : دار المعارف سنة ١٩٧٧ م) ص ٤٠

١٠ - مجنون ليلى (قيس بن الملوح) ديوان مجنون ليلى تحقيق عبد الستار فرج (القاهرة : مكتبة مصر - بدون تاريخ) ص ١٨٥ .

١١ - إيليا أبو ماضى ، ديوان إيليا أبو ماضى (بيروت : دار العودة بدون تاريخ) ص ١٠٢

١٢ - عزيز أباظة ، أنات حائرة (القاهرة : مطبعة مصر سنة ١٩٥٦ م) ص ٨١

١٣ - أحمد شوقى ، الشوقيات ج ٢ (القاهرة - مطبعة الاستقامة ١٩٥٩ م) ص ١٧٠

١٤ - المرجع السابق ص ١٠٣

١٥ - صلاح عبد الصبور ، ديوان صلاح عبد الصبور مج ١ + مج ٢ ط ١ (بيروت : دار العودة سنة ١٩٧٢ م) ص ٥٩٤

١٦ - المرجع السابق ص ١٧٦

١٧ - إبراهيم ناجى ، ديوان ناجى ط ٤ (بيروت : دار الجيل - بدون تاريخ)ص ١٨

١٨ - جبران خليل جبران ، الأعمال الكاملة باللغة العربية تقديم ميخائل نعيمة (بيروت : دار العودة ١٩٨٣ م) ص ٥٩٤ .

١٩ - ملك عبد العزيز الأعمال الكاملة (القاهرة - مكتبة مدبولى .١٩٩ م) ص ٤٥٧

٢٠ - البستانى (بطرس) ، منتقيات أدباء العرب ج ٤ (بيروت : دار الجيل - بدون تاريخ ص ٣٤٥

٢١ - فدوى طوقان ديوان فدوى طوقان ط ١ (بيروت دار العودة سنة ١٩٧٨ م) ص ٤٣٤

٢٢ - أبو فراس (الحارث بن سعيد بن حمدان) ديوان أبى فراس رواية بن خالويه (بيروت : دار صادر (١٩٦١) ص ٣٧ .

٢٣ - المرجع السابق ص ١٤٢

٢٤ - الشوقيات ج ٢ ص ٤٥

٢٥ - الشوقيات ج ٢ ص ١٠٤

٢٦ - السيّاب (بدر شاكر) ديوان السياب مج ١ تقديم ناجى علوش (بيروت : دار العودة ١٩٧١م) ص ٢٦٦

٢٧ - المرجع السابق ص ٦٤٥

٢٨ - المرجع السابق ص ٢٨٧

٢٩ - المرجع السابق ص ٧٠٤

٣٠ - المرجع السابق ص ٦٧٢

٣١ - المرجع السابق ص ٧١٦

٣٢ - الضبى (محمد بن يزيد بن يعلى) المفضليات ط ١ تحقيق أحمد محمد شاكر بالاشتراك (القاهرة : دار المعارف بدون تاريخ) ص ٢٧١

٣٣ - أبو زيد (محمد بن الخطاب القرشى) جمهرة أشعار العرب شرح على فاعور بيروت : دار الكتب العلمية ١٩٨٧ م ، ص ٣٤٥

٣٤ - المرجع السابق ص ٣١٣

٣٥ - ديوان إيليا أبو ماضى ص ٦٨٦

٣٦ - ديوان فدوى طوقان ص ٤٧

٣٧ - ديوان نازك الملائكة ج ١ ص ٢٦٨

٣٨ - ديوان النابغة الذبياني ص ٨٣

٣٩ - المرجع السابق ص ١٠٢

٤٠ - الزوزني (أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين) شرح المعلقات السبع (القاهرة) : مكتبة القاهرة ١٩٦١ م) ص٢٧

٤١ - بشار بن برد ديوان بشار شرح محمد الطاهر بن عاشورج ٢ (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٤ م) ص ١٠٤

٤٢ - العباس بن الأحنف ، ديوان ابن الأحنف (بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٠ م) ص ١٥٧

٤٣ - الشوقيات ج ٢ ص ١٢٥

٤٤ - المرجع السابق ص ١٠٦

٤٥ - ديوان العقاد ص ١١٠

٤٦ - حافظ إبراهيم ديوان حافظ إبراهيم ج ١ + ج ٢ ضبط وشرح أحمد أمين بالاشتراك (بيروت : دار العودة بدون تاريخ) ص ٢٣٦

٤٧ - ديوان إيليا أبي ماضى ص ٥٣٠

٤٨ - ديوان حافظ إبراهيم ص ٢٩٤

٤٩ - المرجع السابق ص ٢٨٩

٥٠ - ديوان صلاح عبد الصبور ص ٧

٥١ - المتنبى (أحمد بن الحسين) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبي البقاء العكبرى تحقيق مصطفى السقا بالاشتراك ج ١ + ج ٢ (بيروت : دار المعرفة ١٩٧٨ م) ص ١٥٩

٥٣ - ابن زيدون (أحمد بن عبد الله) ديوان ابن زيدون شرح كامل كيلانى بالاشتراك (القاهرة : مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٢م) ص ٤

٥٤ - ديوان أبى فراس ص ١٢٤

٥٥ - الشوقيات ج ٢ ص ٢٧

٥٦ - ديوان إيليا أبى ماضى ص ٨٠٧

٥٧ - ديوان أبى فراس ٤٥

٥٨ - الشوقيات ج ٢ ص ١١٥

٥٩ - على محمود طه ديوان علي محمود طه (بيروت : دار العودة ١٩٧٢ م) ص ١١٦

٦٠ - ديوان ناجى ص ٢٠٥

٦١ - المرجع السابق ص ٤٨

٦٢ - ديوان إيليا أبو ماضى ١٠٠

٦٣ - ديوان ناجى ص ٥٣

٦٤ - المرجع السابق ص ١٩

٦٥ - رفيق الناى ، الشراع الممزق - نسخة بالآلة الكاتبة لدى الباحث ص ٣١

٦٦ - ديوان صلاح عبد الصبور ص ٤٠

٦٧ - ديوان ملك عبد العزيز ص ٤١٧ وانظر أيضا لها قصيدة « الأغنية الثانية » ص ٥٩. وفيها تقول :

بقلب الليل تنبت زهرة الأحلام
تمرع ، ترتوى خمرا وتسكرنى ، وتعصرنى
قرابينا على شفة الحبيب الليل
يا لليل ، أعشقه
وأرتقب الصباح برجفة المفجوع
هل لابد أن يأتى الصباح وينسخ الأحلام
حين يصب ضوء الشمس قسوته
يعرى الحلم من وهج الوصول ، ومن حنين الخلد

٦٨ - الشراع الممزق ص ٣٢

٦٩ - جبران خليل جبران الأعمال الكاملة ص ٣٨٣

٧٠ - ديوان نازك الملائكة ج ١ ص ٤٨٣

٧١ - المرجع السابق ص ٤٨٩ ولعل هذا ما ينسجم تماما مع ما ذكرناه فى هامش رقم ٦٧ للشاعرة ملك عبد العزيز .

الفصل الثانى

التوجّه الرومانسى إلى الليل

من يطالع دواوين الشعر العربى على اختلاف عصوره يلاحظ أن علاقة الشاعر بالليل لم تقو ولم تتطور إلاّ عند الرومانسيين من الشعراء في العصر الحديث . فبينما كان الشاعر القديم يكتفى للتعبير عن شعوره تجاه الليل بوصف موجز ، يضّمنه خواطره وما ينتابه من هم وأرق نجد الشاعر الحديث أكثر التصاقا بالليل ، يُهرع إليه تارة كما يهرع الأليف إلى إلفه يبثه لواعجه ومكنون نفسه ، أو يقف أمامه تارة أخرى ليعبر عن مخاوفه منه وتوجسه من شروره . والشاعر ينشئ لليل وفيه لهذا الغرض أو ذاك قصائد كاملةً الليلُ موضوعها وليس عرضا طارئا فيها . وهذا يُعلّل فى نظرى بالأزمات الكثيرة التى يعانيها إنسان المدنية الحديثة فى كثير من المجتمعات ، وهى أزمات جلبت الكثير من الهموم وجعلت الشعراء يتكئون أكثر على ذواتهم يبكونها ويتخذون من صمت الليل ووحشته وسيلة تعينهم على إفراغ ما فى صدورهم من أحزان .

ولا نكاد نقف فى الشعر العربى القديم على قصيدة كاملة أفردت لتأمل الليل والتعبير عما يحركه فى النفس الشاعرة من عواطف وما يثيره فيها من انفعالات . كل ما نجده هو شكوى الشاعر من طول الليل وتكاثره عليه بالهموم ، وهو أمر قد يستوقف الشاعر أمام الليل لبرهة قصيرة تستغرق بيتا أو بيتين ، فإذا طالت هذه الوقفة فإنها تبدو فى هيئة انعطاف نفسى يستغرق تأمل الشاعر قليلا ويحرك خياله فيرسم لوحة فنية نابضة . وأطول ما وجدناه من هذه الانعطافات النفسية قول امرئ القيس الذى سبق أن ذكرناه .

وربما كان هناك من الشعراء القدامى من وقف أمام الليل وامتزجت به عواطفه فأفرد له قصائد أو مقطوعات أوسع مما نجده من إشارات بسيطة فى بطون الدواوين ، لكنّ هذه القصائد أو المقطوعات لم تنقل إلينا لعدم احتفاء الرواة بهذا النوع من الشعر الذاتى الذى لم يكن فى عصورهم سلعة رائجة رابحة فاندثرت وامّحت . لكنّ خلو دواوين الشعراء المحدثين من رواد النهضة الشعرية من هذا الشعر برغم وجود التدوين والطباعة يؤكد لنا أن الشعراء الرومانسيين هم أصحاب هذه الإضافة لشدة التحامهم بهذا المعلم الكونى الهام ، ولكثرة ما ظهر لهم من شعر فيه . وتتجلى الرؤية الرومانسية للمساء فى أمرين شديدىْ الوضوح :

الأول : كثرة تأملهم الغروب وربطهم هذه الظاهرة الكونية بحظ الإنسان وصيرورته ، وكذلك وجود قصائد صيغت خصيصا لوصف الليل ، الليل موضوعها وجوهر مضمونها .

الثانى : ظرفيّة الليل ، ونعنى بها اتخاذ الليل وعاء زمنيا أو مسرحا لبعض الأفعال والأحداث التى لا ترتبط ضرورة بالليل أو التى يستوى الليل فى شأنها بالنهار .

* * *

خواطر الغروب

الغروب عند الشعراء الرومانسيين ظاهرة كونية شديدة التأثير ، تفجّر فى نفوسهم إحساسات شتى وعواطف متباينة . ومن جيد ما قيل في بيان أثره قول الشاعرة نازك الملائكة : (١)

رف حولى الليل والصمت الكئيبْ وتمشّت فى كيانى الرعشاتُ
أى معنى هاج فى نفسى الغروبْ أجفلت فى جسدي منه الحياةُ
وسرى فى مسمعى همس غريب كله هول ورعب وشكاةُ
واعترانى خاطرٌ مشجٍ رهيب وتجلّى لخيالاتى الممات

وإذا كانت الشاعرة نازك الملائكة قد اكتفت بذكر أثر الغروب علي نفسها فإن الشاعرة ملك عبد العزيز تذكر ذلك أيضا ولكن من خلال وصف ملامح الغروب القابضة للنفس فتقول فى قصيدة " الغسق " : (٢)

فى الغسق
والسحاب الجون يحتل الأفق
والسكون المر يوحى بالقلق
وضباب غائم اللون على الشط اندفق
لف أشباح نخيل وبيوت وطرق
وطواها فى ضمير الغيب والغيب حنق
ينهب الفرحة والنور بجوع منطلق

وهى في قولها السابق أكثر إلماما بالظاهرة وأثرها من قولها الموجز فى موضع آخر: (٣)

إننى أخشى مع العصر الغروب إذ يضم النور في واد بعيدْ
حين يطوى الكون في ظل كئيب حين يرمى النفس فى بحر الجمودْ

أما إبراهيم ناجى فيربط بين الشفق الدامى وجراح قلبه المعذب . يقول : [٤]

إذا نشـــر الغـــرب أثـــوابـه وأطلـــق فى النفـــس ما أطلقـــا
نقـول : هل الشـــمـس قد خضّبتـه وخلّـــت بـه دمهـــا المهـــرقـا
أم الغـــرب كالقلـب دامـى الجـراح لـــه طِلبـــة عـــز أن تلحقـــا
فيـا صـــورة فى نواحـى السحـاب رأينـــا بهـــا همّنـــا المغـــرقا

وهو يتساءل : هل ما يراه فى الأفق دماء الشمس التى أهرقتها قبل أن تلقى حتفها ؟ أم أن الأفق واله مثله به ما بقلبه من جراح العشق الدامية ؟ ثم يذكر فى النهاية ما يثيره منظر السحاب الدامى فى وقت الغروب بصدره من هموم وأحزان .

كما أن غروب الشمس مثير لأوجاع أبى القاسم الشابى برغم ما يرسمه على وجه الطبيعة من مشاهد قد تجد فيها بعض الأعين جمالا : [٥]

انظـر إلى شـفق السـماء يفيـض عن تـلك الجبـالْ
بشـعاعـه الخـــلاب يغمـرها ببسـمات الجمـــالْ
فيثـير فى النفـــس الكئيبـــة عاصفـــا لا يركـدُ
ويؤجـــج القلـب المعـــذب شـــعلة لا تخمـدُ

فالنفوس المهيأة لا ستنبات الألم بسبب ما يغلفها من يأس وقنوط يحجبان عنها كل جميل ، لا يبتعث فيها الغروب إحساسا بالجمال والغبطة وإنما يحرك فيها عواصف عاتية من الأحزان .

وغروب الشمس يذكّر بعض الشعراء الرومانسيين بالصيرورة الحتمية نحو الفناء ، فمثلما تنطفئ الشمس ويخبو شعاعها ، ستنطفىء النفس يوما ما فى بئر العدم ، لا جدوى لحياة يتهددها الموت ووجود يترصد له الفناء .

والغروب عند من هم أقل تشاؤما وتوقّزا إحساس مرير وحزن عميق لا نقضاء يومٍ من عمر الإنسان ، يقربّه من الشيخوخة ويدنيه من القبر ، وكذلك إحساس بزوال الآمال ووأد الأوطار .

يقول الشاعر الدكتور عزت شندى موسى : [٦]

عندمـــا غـــابـت ذكـــاء خلتهـــا قـــد تدلّـــت فى خضـــم مغـــرقِ
ورأيـت الـــكون يكســـوه الأســى ثم يبـــدو كمـــكان مغلـــقِ
والـدّنى صـــارت على رحـــب بهـا فى عيـــونى كشـــعاب ضيّـــقِ

ولست العيش يمضى ساعة بعد أخرى لفناء محدقِ
هكذا العمر يولّى مسرعا ليت شعرى ، كم من العمر بقى ؟

ليس من اليسير على النفس الشاعرة سريعة الاهتياج أن ترى الشمس تسقط عن عرشها وتهوى فى غَيابةٍ ما لها من قرار - دون أن تأسى لهذا التحول فيدب فى طياتها من الحزن بقدر ما يسرى فى الكون من شحوب وانطفاء . وكيف لا تأسي هذه النفس ويعتريها المزاج الرمادى وهى ترى الطبيعة من حولها تفقد ألحانها وأصباغها وتتحول شيئا فشيئا إلى كتلة خرساء شوهاء ، طُمرت فيها المعالم وطمست فيها الألوان .

يصف صلاح عبد الصبور ما يعتريه من أكدار وهو يتأمل غروب الشمس وحمرة الشفق : (٧)

يعتريني المزاج الرمادى حين تصيرُ
السماء رمادية ، حين تذبلُ
شمس الأصيل وتهوى على خنجرِ
الشجر النقط الشفقية ، تنزف
منها ، تموت بلا ضجة ويوارى
أضالعها العاريات التراب الرميم

ووقع الغروب على نفس الشاعر واضح فيما استمده من أصباغ نفسية دامية رسم بها صورة الشمس وهى تهوى إلى مثواها الأخير . أما فدوى طوقان فتصف حالها فى الغروب وقد شاهدت أسراب الطيور تهرع إلى أوكارها مودّعة النهار بآخر ألحانها : (٨)

وأنا فى شرفتى أصغى إلى اللحن الأخيرْ
وقّعته فى وداع النور أجواق الطيورْ
فيثير اللحن فى نفسى غمًّا واكتئابا
ويشيع اللحن فى روحى ارتباكا واضطرابا
أى أصداء له تصدمُ أغوار شعورى

فكأن أصوات الطيور المتدافعة نحو أعشاشها خوفا من جحافل الظلام - لحن جنائزى تنقبض له النفس وتمتلئ بالغم والاكتئاب . وهو إحساس ينتاب كثيرا من الناس ذوى الشعور المرهف والخيال المستوفز . ثم تربط الشاعرة فى قصيدتها بين غروب الجمال الكونى وغروب عمر الإنسان معدّدة مع الغروب نذر الفناء الأخرى التى تذكّر دوما بنهايتها

الفاجعة :

الخـريـف الجهْـم والريـح وأشـجان الغـروبْ
ووداع الطـير للنـور وللـروض الكئيـب
كلهـا تمثـل فى نفسـى رمـزا لانتهـائى
رمـز عمـر يتهـاوى غاربـا نحـو الفنـاء
فـترة ثـم تلـف العمـر أسـتار المغيـبْ

فهذه العوامل القاسية التى تعرّى الطبيعة من بهائها : الخريف والريح والغروب ، ولياذ الطيور بأعشاشها ، تصبغ نفس الشاعر الرومانسى بالحزن والمخاوف وغير قليل من التشاؤم . ولم لا يكون للغروب هذا الأثر الممض فى النفس وهو نذير لا يفتأ يذكّر الإنسان كل يوم بمصيره المحتوم ؟ يقول د. عزت شندى موسى : (٩)

إننـى أنكـرت من لا يـرعـوى من نذيـر المـوت أو لا يتقـى
وتألمـت لمـن ينسـى الـرّدى ثم يمضـى سـادرا فى الـنزقِ
وتعجبـت لمـن لـم يتعـظ من غـروب الشـمس خلف الأفـقِ

فلو أن الإنسان فى نظره تأمل غروب الشمس وزوالها لا تخذ من ذلك واعظا وزاجرا له عن المضي فى ضلاله وغيه .

وبرغم أن عزيز أباظة ليس معدوداً ضمن الرومانسيين من الشعراء نجده بعد رحيل زوجه يقف كما يقفون أمام الشمس الآفلة ويطيل تأملها ، ثم يعبر عمّا بين غروبها وانقضاء الآجال من تشابه ، فهى والبشر يتحركون جميعا دون إرادة ، كلٌّ إلى قراره وقَدَرِه المقدور : (١٠)

قلـت لمـا رأيتهـا تتهـادى لمغيـب فى سـبح يـمٍّ سـحيق
وهى مصـفرّة الأديـم كمـا اصـفرّ مشـوق أضنـاه نـأى مشـوقِ
إيه يا شـمس والعـوالـمُ تجـرى فى بـروج علـويّـة التنسـيقِ
سـابق فى سـديمه جدّ فى السـير فأخلـى السـبيل للمسـبوقِ
سـنّة الـكون والحيـاة دواليـ ـك غـروب يكـرّ إثـر شـروقِ
أنـت ذكّرتنى بشـمس من الحـو رتولّـت فى حسـنها المرمـوقِ
فى إطـار من الجـلال سـنىٍّ وطـراز من الشـباب أنيـقِ

لقد ذكرته هذه الشمس الغاربةُ زوجته التي أفلت عن حياته ، فمثلما ترحل الشمس

أمام عينيه ساحبة خيوطها الذهبية من أقطار الأرض لتحيلها إلى سديم وظلام ، رحلت عنه زوجته ولملمت كل ما كانت قد ألقته على حياته من ألق وبهاء .

وينظر الشابى إلى الغروب نظرة آسية ترى فيه مزيجا من الجلال والجمال والرهبة والحزن فهو قادر غالب يلف الكون ويحتويه من جميع أقطاره ويسد جميع منافذه ويسجى كل ما فيه برداء الظلام والصمت : (١١)

أظـلّ الفضـاء جنـاح الغـروب فألقـى عليـه جمـالا كئيـبْ
وألبسـه حُلّـة من جـلال شـجى قـوي جميـل غلـوبْ
فنامـت على العشب تلك الزهـور لمـرأى المسـاء الحـزين الرهـيبْ

ولئن كان الغروب يلف الطبيعة بصمته ووحشته فإنه يبعث فى صدور الرعاة والأغنام إحساسا بالفرحة لأنه يعيدهم إلى الدار والصغار :

وولى رعـاة السـوام إلى الحـىّ يزجـونهـا فى صِمـات الغـروبْ
فتثغـو حنينـا لحمـلانهـا وتقطـف زهـر المـروج الخصيـبْ
وهـم ينشـدون أهازيجهـم بصـوت بهيـج فَـروح طـروبْ
ويسـتمنحـون مـزاميـرهـم فتمنحهـم كل لحـن عجيـبْ

إلاّ أن الشابى يستغل هذا المشهد السعيد ليوظفه توظيفا حزينا وذلك بأن يسلكه فى مقابلة يقارن فيها بين تعاسة نفسه وسعادة هؤلاء :

وأقبـل كـلٌّ إلى أهـلـه سـوى أملى المسـتطار الغريـبْ
فقد تـاه فى معسـبات الحيـاة وسـدت عليـه مناحـى الـدروبْ

فالغروب الذى يفرح الرعاة والأغنام بقدومه لأنه يعيدهم إلى الأهل والدار ، يجدد إحساس الشاعر بالحظ التعس والجَد العاثر .

وفى قصيدة " الشمس الغريقة " وقف أحمد زكى أبو شادى مع حبيبته يتأملان غروب الشمس واختفاء قرصها فى عباب البحر ، ويعبر لنا عما ترسب فى أعماقه من قتام هذا المشهد : (١٢)

أرى الشمس قد سقطت فى العبابِ فمـا بالهـا الآن لا تنطفـى ؟
وما ذلك اللهـب المسـتثارُ علي المـاء من وقْـد روحٍ خفـى ؟
أفى المـاء نجـوى فـؤادى الحـزين يناجـى الشـفاء فما يشتفـى ؟

ويذكر فيها أنه لا ينعكس على صفحة نفسه من مشهد الغروب سوى الحزن لما ترف به

ملامح الطبيعة من أطياف الكآبة وما تفيض به من أشجان :

وقفنا على اليم عند الغروب وكم فى الغروب أسىً للقلوب
فأسمعنا الماء صوت الشجىَ ورف على النور روح الكئيب

ثم يربط بين انطفاء الشمس فى الماء وبين صيرورة الأشياء تجاه الفناء :

وفى لحظة غاب ذاك اللهبْ وقد كنت أحسبه لا يغيب
فيا عجبا لصروف القدر وإن لم يكن منه شئ عجيب

ويختم القصيدة بوصف لحظة الوداع وما خيم على وجه حبيبته من مخاوف وأحزان لأن مصرع الشمس راعها وذكّرها بمصرع الإنسان ، فاحتشدت فى قلبها آلام الفراق ومخاوف الفناء :

وحان الوداع وكم فى الوداعْ دماء تراق وعمر يضاع
فلاحت لفاتنتى عَبرة على خدها كلظى فى شعاع
وقد رأت الشمس مرأى الفناء وقد غرقت وهى رب يطاع
فريعت لمصرعنا الآدمىّ وهذى الألوهة تلقى الصراع

كما أن موقف الشاعر من الغروب يطالعنا مرة أخرى من أول بيت فى قصيدته " الغروب الثائر " حيث يستهلها بالتساؤل عن سر ما يثيره فى صدره من أنواء وما يحركه فى نفسه من هواجس : (١٣)

ما للغروب يثور بالأنواء فى قلبى الحزين ؟
ما للدماء تكاثفت كالموج والغيب السفين ؟
أين الضحايا قد تراءى الأفق يعكس روحها
هيهات قد ذهبت وإن أبقى الزمان جروحها

فكأن حمرة الشفق دماء الضحايا الغابرين ، تلوح لعينه كل غروب فتبعث فى نفسه التحسر على مصير الإنسان مصير كل كائن حى . وإذا ما يراه أمام عينيه من ثورة الطبيعة ثورة تجيش بقلبه . وإذا ما يغشى الكون من أكدار وأحزان نابع من نفسه ومستمد من أصباغ حدادها على العمر الآفل والأرواح الزاهقة .

وتمضى القصيدة إلى نهايتها نسجا على هذا المنوال من حديث عن ثورة النفس واضطراب الوجدان . وإذا كان « الغروب الثائر » عنوانا يعكس صراحة رؤية الشاعر للغروب وأثره العميق فى عواطفه فإن " الشروق الهادئ : عنوان آخر لإحدى قصائده

يعكس فى المقابل إحساسه بالغبطة لمطلع يوم جديد تتجدد معه الآمال [١٤]

أما عبد الرحمن شكرى فيشبه مرحلة الشباب فى عمر الإنسان بالشمس في طلوعها وأفولها . كل منهما يتوقد حينا ثم ينطفئ مخلفا وراءه من الذكريات ما تأسى له النفس . يقول لشبابه الذاهب فى " غروب الشباب " : [١٥]

طلعتَ طلوع الشمس والعمر واضحٌ شهيٌّ وأثمار الحياة تطيبُ
وتغرب عنا مغرب الشمس رائعا وأنت على ما كان فيكَ حبيبُ
تضئ بحار العمر كالشمس حقبة وتطفئك الأحداث وهْى خطوبُ
لك الشفق المشبوب كالنار كلّما تأجج فى صم الضلوع لهيبُ
وتندبك الأشجان وهى سحائب لها منظر عند الغروب مهيبُ

وفى قصيدة " أمسية " تصف الشاعرة ملك عبد العزيز ما يلقيه الغروب فى فؤادها من أشجان ، كما تُفرغ بعض أحزانها على ما تراه أمامها من مشاهد هذا الغروب : [١٦]

الغرب والخريف والمساء والسكونْ
تجرح الفؤاد فى تهافت حزينْ
ونسمة الشمال . . مسّها الحنونْ
يثير فى العيون
مدامعا رقراقة اللحونْ
وتاه فى بحيرة الملال
ومفرق الهلال
كالجرح ينزو
مفرق الهلال
ونجمة الغروب كالأمل
لكنه محال
لكنه محال

فالغروب يلملم ضوء الشمس من الوجود فيختفى ما كان متألقا تحته من ألوان الطبيعة وجمالها . وماقد يبدو للعين فى الغروب من عناصر الجمال التى قد تخفف وطأته على النفس تخلع الشاعرة عليه شعورها الحزين وتصبغه بقتام نفسها فإذا :

مفـــــــــــــرق الهـــــــــــــلال
(كالجـــــــــــــرح يـــــــــــــنزو)

وإذا

نجمـــــــــــة الغـــــــــروب كالأمـــــــــل
(لكنـــــــــــــه محـــــــــــــال)
(لكنـــــــــــــه محـــــــــــــال)

وقصيدة " المساء " من أجود ما أبدعته شاعرية خليل مطران . وهى قصيدة ذات نزعة رومانسية غالبة صاغها وهو عليل يطلب الشفاء بأحد شواطئ الإسكندرية . جلس مطران علي الشاطى يتأمل قرص الشمس وهو يميل إلى الغروب شيئا فشيئا ثم يختفى فى عباب البحر . وكان الشاعر يتابع هذا المشهد فيزداد أسى على ما به من ألم العلّة . وعندما تهيأ له وصف ما رأي أسقط عليه كلّ ما بداخله من كدرة النفس وقتام اليأس ، صَبغ بهما كل ما قدم من صور وخط من ملامح . ولعلنا نلمس هذا فيما قدّمه من تساؤل ينم عن مخاوف الغروب وأحزانه : (١٧)

ياللغـــروب ومـــابه من عِـــبرة للمســـتهام وعِـــبرة للـــرائى
أو ليـــس نزعـــا للنهـــار وصـــرعة للشـــمس بين مـــآتم الأضـــواء ؟
أو ليـــس طمســـا لليقـــين ومبعثـــا للشـــك بين غـــلائل الظلمـــاء ؟
أو ليـــس محـــوا للوجود إلى مـــدىً وإبـــادة لمعـــالم الأشـــياء ؟
حتى يكـــون النـــور تجـــديـــدا لهـــا ويكون شـــبه البعـــث عَـــوْد ذكـــاء

فالغروب ليس هو رحلة الشمس المعتادة فى كل يوم ، إنما هو احتضار يلفظ فيه النهار أنفاسه ومهوى عميق تلقى الشمس فيه مصرعها . وحمرة الشفق وما يمازجها من ألوان ليست انعكاسات قرص الشمس الذهبى الغارب على صفحة السماء ، بل هى أضواء المآتم التى أقيمت لوداع النهار وتشييع الشمس . والغروب أيضا طمس ليقين النفوس وما كانت تحسه من طمأنينة فى أثناء النهار وإيذان بتحرك الشكوك والهواجس بين لفائفها . وليس الغروب فى رؤية مطران ميقاتا جعله الله تعالى لراحة الأبدان ، بل ميقاتا لمحو الجمال الكونى وإبادة معالم الأشياء ، حتى تُبعث الشمس فترفع ما تقوض من معالم مملكتها الدارسة .

وهذا الإحساس الممض يشيع فى كل أنحاء القصيدة ويسرى فى كل ما قدم الشاعر من

وصف ورسم من صور . ولنتأمل قوله يصف اكتئابه وهو يحدق فى قرص الشمس الآفل الذى عدّه نذيرا بانقضاء أجله ، وكيف سكب فى مشهد الغروب قطرات سوداء من نظرته المتشائمة وذوب روحه الآسية :

ولقد ذكرتكِ والنهار مودّعٌ ... والقلب بين مهابة ورجاءِ
وخواطرى تبدو تجاه نواظرى ... كلُمى كدامية السحاب إزائى
والدمع من جفنى يسيل مشعشَعا ... بسنى الشعاع الغارب المترائى
والشمس فى شفق يسيل نضاره ... فوق العقيق على ذرى سوداء
مرّت خلال غمامتين تحدّرا ... وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكأن آخر دمعة للكون قد ... مُزجت بآخر أدمعى لرثائى
وكأننى آنست يومى زائلا ... فرأيت فى المرآة كيف مسائى ؟

ولننظر كيف يكثف الشاعر إحساسه بقسوة الغروب ويصبه جملة فى البيتين الأخيرين وكيف أن الغروب كان بالنسبة إليه معاناة ونذير شدة تترصده فى المساء بين طيات الظلام :

وكأننى آنست يومى زائلا ... فرأيت فى المرآة كيف مسائى

* * *

ومن أكثر اللوحات الفنية استيفاء لملامح الغروب فى البيئة الريفية ، وأدقها وصفا ، قصيدة " الغروب " للشاعرة نازك الملائكة ، فلم تكتف الشاعرة بوصف ما يعتريها وهى تتأمل أفول الشمس من شجى وما يجيش به صدرها من ذعر ، بل أرسلت كافة حواسها تلتقط من بين طيات الغروب ومن تحت سدفه أدق المرئيات والأصوات لتعرضها فى صور حية نابضة تجعلنا نحس بإحساسها الشاجى وروحها الحزين .

ولننظر إليها وقد استغرقت فيما حولها شاردة اللب زائغة العينين : (١٨)

غرق الضوء وراء الأفقِ ... وخلا العالم من لون الضياء
ليس إلا رمق فى الشفقِ ... حائل قد كاد يمحوه الفناء
وأنا تمثال حزن محرق ... وشقاء مطبق فوق شقاء
أرمق الأفق بطرف مغرق ... تائه يطوى دياجير الفضاء

ثم وهى تصف انقباض روحها لما أيقظه الغروب من غمومها وما أطلقه من أشباح الموت حولها :

ها أنا وحدى تناديني غمومي وكآباتي وأشباح الفناء
كل ما حولي مثير للوجوم مصرع الشمس وأحزان المساء
عبثا أطرد عن نفسي همومي عبثا أرجو شعاعا من رجاء
غرقت أحلام قلبي في الغيوم وتلاشت مثل أحلام الضياء

فإذا انتقلنا إلى جوانب اللوحة بحثا عما قدمته من صور الطبيعة حولها ، كان أول ما يقابلنا وصفها الصمتَ المطبق الذى خيم على الوجود من حولها وأحاله إلى مَوات :

أقفر العالم حولي ، لا نشيد من صبيٍّ أو هتاف أو حفيف
وخلا الشاطئ الساجي المديد ومشت في الجو أحزان الخريف
أنا والأمواج واليأس الشديد وانحدار الشط والظل الوريف
وحوالىَ ظلام وركود ألقيا الحزن على حسىّ الرهيف

وعودة الرعاة بأغنامهم من المشاهد الريفية المألوفة عند غروب الشمس ، وقد رأينا من قبل كيف صوّر الشابى سعادة الرعاة والأغنام بغروب الشمس لأنه ميقات العودة للديار والصغار . ورأينا أيضا كيف استغل هذه الفرحة استغلالا فنيا جيدا عندما قابل بينها وبين حزنه وتجديد الغروب إحساسه باليأس وخيبة الأمل .

وأقبل كلٌّ إلى أهله سوى أملى المستطارِ الغريب
فقد تاه فى معسبات الحياة وسُدت عليه مناحى الدروب

أما الشاعرة نازك الملائكة فتأبى الاّ أن تُشرك هؤلاء الرعاة وهذه الأغنام فيما تحسه من أحزان وأكدار :

من بعيد أبصر الراعى الحزين يُرجِع الأغنام فى صمت الغروب
مُطرِقا أتعبه ركب السنين فقضاها فى نحول وشحوب
هو والأغنام حزن وسكون وخُطى فى مسمع الليل الرهيب
وأنا أرمقهم غرقى الجفون تحت أحلام شبابى وكروبى

وكما صورت الشاعرة فدوى طوقان فزع الطيورعند الغروب من قدوم جحافل الظلام وإسراعها للاحتماء بأعشاشها ، لم يفت الشاعرة نازك الملائكة أن تضم هذا المشهد إلى لوحتها وإن كان فى هيئة أخرى تموج بالحركة :

وبعيـــدا فى الفضـــاء المدلهـــمِ خفقـــة من جنـح طـير عـــابرِ
فاجـأته ظلمـــة الليـــل الملـــمِّ وجبـــال من ســـحاب مـاطـــرِ
فســـرى بـين دياجـــير وغيـــمِ كخيـــال فى فـــؤاد الشـاعـــرِ
لحظـــة ثم تـــوارى في الخضـــمِّ بـين أمـواج الظـــلام الـغـامـــرِ

ولقد التفتت الشاعرة نازك الملائكة فى وصفها الغروب إلى عنصرين من أهم عناصر الغروب الريفى ، الأول : نباح الكلاب فى الحقول البعيدة ، يبلغ الآذان فيطرقها بشجى غير قليل :

ونبـاح الـكلب فى الحقـل البعيـد رف فى ســمعى ضئيـلا مُجهَـدا
موحشـا فى ظلمـة الليـل الوليـد غامـض الوقـع غريبـا كالصـدى
كل صـوت فى الدجى رعـب جديـد عنـد من قد كـان مثـلى مُفـردا
ذا فـؤاد مرهـف الحـس شـريـد دفـن الأمـس ولم يـرج الغـدا

وأما الثانى ، فهو صوت طاحونة القمح الذى وصفتة بقولها :

وصـدى طـاحونة القمـح الغريـب يكئـب النفـس بأشـجى النغمـات

فالصوتان يشقان طريقهما في صمت الغروب عبر الحقول والدور ويحركان إحساسات شتى بالنفس ، لاسيما نفس الشاعر المفرد الذى كانت نفسه مهيأة لاستنبات الألم ، وكان :

ذا فـؤاد مرهـف الحـس شـريـد دفن الأمـس ولـم يـرج الغـدا

* * *

ومن مظاهر التوجّه الرومانسى إلى الليل ما نقابله من شعر كثير أبدع من أجله ، لوصفه أو لبيان أثره فى النفس ، الليل موضوعه وليس مجرد غرض ثانوى فيه كباقى الأغراض التى قد يعرّج إليها الشاعر وهو يصوغ قصيدته . وهذا أمر لا يكاد يُرى فى مراحل الشعر العربى السابقة .

وظهور شعر خاص بالليل ، الليل موضوعه وليس خاطرا عارضا فيه ، ليدل دلالة قوية على استغراق هؤلاء الشعراء الرومانسيين فى الليل وتعلقهم الوجدانى به بدرجة ليست للقدامى الذين لم يستوقفهم الليل إلا قليلا دون أن يحدث بينهم وبينه هذا التجاوب الحميم الذى نجده عند شعراء كثيرين مثل : الشابى والهمشرى ونازك الملائكة والسياب وفدوي طوقان وملك عبد العزيز . . . الخ .

وقد أدى توجه الشعراء إلى الليل إلى ظهور عناوين شعرية تعكس هذه العلاقة الجديدة وتنم عن تغلغل أرواح الشعراء بين طيات المساء والارتواء من خمره حتى الثمالة .

ولعل فى البيان التالى على قِصره ـ ما يوضح من خلال إبداع بعض الشعراء كيف قويت هذه العلاقة شيئا فشيئا حتى أصبحت ظاهرة شعرية لافتة .

- فى شعر خليل مطران نجد " المساء " عنوانا لواحدة من أشهر قصائده ، عدها النقاد منعطفا هاما نحو الرومانسية فى العصر الحديث وفى شعر أبى ماضى نجد " المساء " و " فى الليل " ، وقصيدته الأولى من أجود ما صور جيشان النفوس مع قدوم الليل وسنقوم بإلقاء الضوء على بعض جوانبها .
- وعند شعراء مدرسة الديوان نجد " ليلة نابغية " و " أتعلم أيها الليل " للعقاد . ونجد " الحب والليل " وعناء الليل والحب " و " طول الليل " و " صوت الليل " " والليل " لعبد الرحمن شكرى .
- وعند شعراء أبولو نجد " الليالى " و " ليالى الأرق " و " خواطر الغروب " و " ظلام " " وليلة " وفى الظلام " و " ختام الليالى " للدكتور إبراهيم ناجى ، كما نجد " فى الظلام " و " أيها الليل " و " فى سكون الليل " . . . الخ للشابى ، كما نجد " عاصفة فى سكون الليل " و " إلى القمر " و " ليلية " للهمشرى .
- وتشيع الظاهرة فى الشعر الحر فنجد فى شعر بدر شاكر السياب " فى الليل " و " ليلة فى لندن " و " ليلة فى باريس " و " ليلة فى العراق " و " ليلة وداع " و " فى غابة الظلام " و " ليلة انتظار " و " إقبال والليل " و " ليالى الخريف " و " الليلة الأخيرة " .

ونجد عند نازك الملائكة : الغروب " وعاشقة الليل " و " خواطر مسائية " و " ذات مساء " و " ليلة ممطرة " . وفي شعر فدوى طوقان نجد لها " خريف ومساء " و " ليل وقلب " و " أنا وحدى مع الليل " و " لقاء كل ليلة " كما نجد لملك عبد العزيز " ظلام " و " فى الغسق " و " نسيم المساء " و " قال المساء " و " أمسية " و " الليل والأحزان " .

ويطول بنا الحديث دون أن ننتهى إلى حصر كل القصائد الموسومة بميسم الليل ، ووجود هذه العناوين فى الشعر العربى المعاصر بالذات ليس ظاهرة شكلية ، فالعنوان مصباح يلقى الضوء على مضمون القصيدة ويكشف عن جوها النفسى . والقصيدة الجيدة ما يُستدلُّ على موضوعها من خلال عنوانها أو ما يكون عنوانها مفتاحا يساعد على اجتياز مغالقها.

ولم يقتصر الأمر على حد ظهور قصائد تتخذ الليل وعناصره موضوعا لها إذ ظهرت

دواوين ومجموعات شعرية تحمل أسماء تنم عما لليل فى نفوس الشعراء من تأثير محض . وأصبحت عناوين مثل : " أشباح الأصيل " و أشجان الليل " و " أعاصير مغرب " فى شعر العقاد وأخرى مثل " عاشقة الليل " عند نازك الملائكة و " قال المساء " و " أغنيات لليل " فى شعر ملك عبد العزيز ـ أصبحت ذات دلالة قوية على الجو النفسى أو الطابع الغالب الذي يميز شعر هذه الدواوين .

ولا يعنى ما ذكرناه أن علاقة الشاعر وتوجهه إلى الليل محصور فحسب فى هذه الأعمال الموسومة بميسم الليل ، فإننا نجد أحاسيس الشعراء تجاهه منبثة فى كثير من الشعر ، لا سيما ما كان منه كشفا عن هموم النفس وعللها .

* * *

ولعل قصيدة المساء " للشاعر إيليا أبى ماضى من أفضل الشعر الذى وصف موقف الشعراء الرومانسيين من الليل وماله فى نفوس أكثرهم من تأثير شديد يجعلهم ينطوون على شئ من التشاؤم واليأس .

وقد بدأ الشاعر قصيدته برسم لوحة فنية ألقى فيها على الطبيعة ظلالا من الخوف والحزن وقت الغروب، وكأنه يبرر بهذا التمهيد ما يطرحه بعده من مخاوف النفس وأحزانها عندما يطبق الظلام ويسود الصمت : (١٩)

السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين
والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهدين
لكنما عيناك باهتتان فى الأفق البعيد
سلمى بماذا تفكرين ؟
سلمى بماذا تحلمين ؟

وشخصية (سلمى) ـ فى نظرى ـ شخصية فنية مصطنعة ، يتخذ الشاعر من محاورتها أسلوبا فنيا لإثراء القصيدة فهو يتمكن من خلال هذه المحاورة من نشر كل ما طواه داخله (هو) تجاه المساء من خواطر قاتمة ، يُسقطها على هذه الفتاة بدلا من أن يتم ذلك عن طريق بث ذاتى مباشر . فهو بدلا من أن ينسب إلى نفسه شعور الحزن والخوف من قدوم المساء ، ينسب هذا كله إلى هذه الفتاة ويسقط عليها شعورا تلو شعور ليكون هذا مبررا لأن يدعوها ـ كعادته ـ إلى التفاؤل واستشعار السعادة .

ويسأل الشاعر سلمى عن سر ما يعتريها من وجوم وقت الغروب :

أرأيت أحـلام الطفـولة تختـفى خلـف التخـوم ؟
أم أبصـرت عينـاك أشـباح الكهـولة فى الغيـوم ؟
أم خفـتِ أن يأتى الدجى الجـانى ولا تأتـى النجـوم ؟
أنا لا أرى ما تلمحـين من المشـاهد ، إنمـا
أظلالها فى ناظريكِ
تنم يا سـلمى عليكِ

ويذكر الشاعر فى حديثه معها أن الأحزان التي عرتها لم تظهر عليها إلا عند قدوم الليل مؤكدا بذلك وجود العلاقة العلّية بين قدوم المساء وبين ما يلوح فى عينى الإنسان ليلا من انطفاء واكتئاب :

هذى الهواجـس لم تكـن مرسـومة فى مقلتيـكِ
فلقـد رأيتـك فى الضحـى ورأيتـه فى وجنتيـكِ
لكنْ وجـدتك فى المسـاء وضعـتِ رأسـك فى يديـكِ
وجلسـتِ فى عينيـك ألغـاز وفى النفـس اكتئـاب

والشاعر فى محاولة الكشف عن سر ما انتاب سلمى من شجى وهواجس بقدوم المساء يفترض لذلك أسبابا كلٌّ منها كفيل بأن يبث الوحشة فى النفوس ويحرك الأسى فى القلوب ثم ينثنى على هذه الفتاة مترفقا بحالها طالبا منها أن تستمتع بالليل كما تستمتع بالنهار فإن فيه من عناصر البهجة ما يجلب السعادة للنفس متى بحثت عنه وتأملته :

لـكن لمـاذا تجـزعـين على النهـار ، وللدجـى
أحـلامـه ورغـائبـه وسـماؤه وكـواكبـه

فلئن كان المساء قد سلب الطبيعة جمالها الكائن فى المرئيات بعد أن حجبها وسترها فما زالت هناك مصادر أخرى للجمال لم يستطع الليل حجبها وبسط نفوذه عليها فيمكن للمرء أن يستمتع بها من أزاهر تنشر أريجها ومياه ترسل خريرها ونسائم تتجدد أنفاسها وأغصان تبعث حفيفها وعنادل تسخو بألحانها . فلنبحث عن السعادة فيما تبقى لنا وهو كثير .

وأخيرا يختتم الشاعر نصيحته طالبا من سلمى ألاّ تستغرق في تأمل الحياة بحثا عن علل الأشياء وأسبابها لأن هذا يضاعف الأحزان ويجمع الهموم :

مات النهـار ابن الصبـاح فـلا تقـولى : كيف مـات ؟
إن التأمـــل فى الحيـــاة يـزيـد أوجـــاع الحيـــاة
فدعـــي الـــكآبة والأســـى واســترجعى مـرح الفتـــاة
قد كان وجهـــك فى الضحـــى مثل الضحـــى متهـلّلا
فيه البشـاشـة والبهاء
ليكن كذلك فى المساء

وسواء أكانت ألفاظ " الضحى " و " النهار " و " المساء " مستخدمة لتلك الأوقات المعروفة من اليوم أم رموزا لمراحل عمر الإنسان فإنها فى كلتا الحالتين تنم عن شئ واحد لا خلاف عليه وهو : إحساس الشاعر بما يلقيه الليل على النفس من ظلال الوحشة والحزن .

* * *

ظرفيـة الليـل

ونعنى بها كما ذكرنا سابقا اتخاذ الليل وعاء زمنيا أو مسرحا لبعض الأفعال والأحداث التي لا ترتبط ضرورة بالليل أو التى يستوى الليل فى شأنها بالنهار ، وإنما يفضل خيال الشعراء الليل لأنه يحقق للمبدع شيئا عظيما من التكثيف الشعورى أو التصعيد الدرامى فى أثناء وصف هذه الأحداث . كما يحقق الليل أيضا هذا الشئ بالنسبة للمتلقى لما يلقيه على الأفعال والأحداث من أصباغ قتامه ورهبته ، فتكون وهى متلبسة برداء الليل أشد تأثيرا فى نفسه منها وهى متجردة عارية من وحشته .

فإذا كان طبيعيا اتخاذ الشاعر الليل ساحة لبعض الأحداث والأفعال مثل القتل والسرقة والتقاء العاشقين ، فإنه من غير المنطقى ربطه بين الليل وأحداث أخرى كالموت والوداع إذ لا يختص الليل بها دون النهار ، وتقع فى هذا وذاك على السواء وإنما يُقدم الخيال المبدع على ذلك للغرض الفنى الذى سبق أن ذكرناه .

ولو أننا تأملنا قول إيليا أبى ماضى : (٢٠)

كـــن هـــزارا فى عشـــه يتغنـــى ومع الليـــل لا يبـــالى الكبـــولا
لا غـــرابا يطـــارد الـــدود فى الأر ض وبوما (فى الليل) يبكى الطلولا

لو جدنا ربط بكاء البوم بالليل أمرا طبيعيا ، إذ لا ينشط البوم إلا فى هذا الوقت المحدد من اليوم . ولكننا لو قرأنا قوله فى القصيدة نفسها :

كن مع الفجر نسمة توسع الأز هار شمًا وتارة تقبيلا
لا سَموما من السوافى اللواتى تملأ الأرض (فى الظلام) عويلا

ما وجدنا علة طبيعية تجعل الشاعر يجمع بين الرياح السوافى والليل أو تجعل هبوب الرياح ظاهرة طبيعية متعلقة بقدومه ، فالرياح تعول فى النهار كما تعول فى المساء . غير أن عويل الرياح فى ظلام الليل وسكونه مع توجّه الإنسان إليه فى ذلك الوقت بكامل حاسته يجعل صدر الإنسان به أشد انقباضا من أن يتم ذلك فى وضح النهار وصخبه ، حيث النفس مشتغلة بغيره عنه .

ومما لجأ فيه الشاعر إلى الليل لغرض فنى بقصد إثراء ملامح الصورة بالروْع والرهبة قول إيليا أبى ماضى أيضا : (٢١)

فلا تك مثل الأقحوانة راعها من الحقل أن تُجنى فلم تسكن الحقلا
وأعجبها الوادى فلاذت بقاعه فجاء عليها السيل (فى الليل) واستتلى

فالسيول ليست موقوتة بزمن محدد من ليل أو نهار . لكن الصورة إذا جمعت بطش السيل إلى رهبة الليل كانت أعظم إبانة عما لحق هذه الزهرة من ويلات نتيجة خوفها وسوء اختيارها .

ولم يكن هذا العنصر الفنى الهام فى تشكيل اللوحة الشعرية ليغيب عن خيال الشعراء الرومانسيين خاصة ، فراحوا يرسمون اللوحات الكثيرة بمداده ويصوغون مشاهد البؤس العديدة تحت سدفه لتكون أكثر كآبة وأشد إيلاما .

يصف بدر شاكر السياب أبناءه وقد أقعده المرض وأعجزه عن الكسب : (٢٢)

أطفال أيوب من يرعاهم الآنا ؟
ضاعوا ضياع اليتامى فى (دجى شاتِ)

فلم يكتف الشاعر بتشبيه ضياع أبنائه بضياع اليتامى (مطلقا) ، لما يصاحب الإطلاق والتعميم من تسطيح المشاعر واختفاء بعض الملامح . ودفعه حرصه على إبراز ملامح بؤسهم إلى تحديدِ أكثر فقرن الضياع بالدجى ، وزاد فقرن الدجى بالشتاء لأنه يعلم أن إضافة هذين العنصرين تجعل الصورة أكثر شقوةً وأبعد غورا فى النفس .

والشتاء والرعد والخريف والعواصف والرياح عناصر طبيعية قاسية يضيفها الخيال الرومانسى إلى الليل فى كثير من الصور الشعرية لجعلها أكثر إيحاء بالرهبة والوحشة . ولكن يبقى الليل هو الركيزة الأولى والعنصر الرئيس فى تشكيل مثل هذه الصور والقطب

الذى يدور حوله الخيال المبدع .

والهموم والأحزان مؤلمة موجعة ولكنها تكون أشد إيلاما للنفوس إذا كانت من هذا الصنف الذى وصفته نازك الملائكة بقولها : (٢٣)

يا همـوم الشباب فيم تكونين أحرّ الهموم والأحـزان ؟

أنت يا من يصوغك القدر الظالم (ليلا) على الوجود الفانى

فهموم يجتمع فى صياغتها (الليل والقدر الظالم) لابد أن تكون أعتى الهموم وأقساها .

وحينما تصف نازك الملائكة ما حلّ بالمجنون بعد وفاة ليلاه من شرود وذهول أفضيا به إلى الموت ، لم يفتها أن تسلك هذا كله بسلك الليل لتزيد من إحساسنا بمأساة هذا العاشق وعذابه الروحى تقول:(٢٤)

كيف مات المجنـون ؟ هل سعدت ليلى ؟ سـلوا هذه الصحـارى الحـزينـه

اسـألوها مـا حـدث الريح قيـس الـ أمس (ليلا) وكيـف عـاش سـنينه

فاتخاذ الشاعرة الليل ظرفا لهيامه ونجواه يضفى على صورته ملامح جديدة من التعاسة تستوجب الرثاء لحاله . وصوت الساقية من الأصوات المألوفة في البيئة الريفية وهو قد يبتعث شجنا فى النفس ، ولكنه أكثر شجنا فى قول أمير الشعراء : (٢٥)

وما شـجانى إلاّ صـوت سـاقيـة (تستقبل الليل) بين النـوح والعبرِ

لم يترك الوجـد منها غـير أضـلعها وغير دمع كصـوب الغيـث منهمـرِ

وليس هذا لما خلعه خيال أمير الشعراء على الساقية من عواطف العاشقين وتحرّق أكبادهم فحسب وإنما لربطه كل ذلك بالجو النفسى للغروب . ولعل أشجان الغروب هي التى تسلّلت إلى داخل نفسه الشاعرة ثم ارتدت وانعكست على الكائنات المحيطة به فكان لها صور أخرى ووقع آخر منها هذه الصورة الآسية لهذه الساقية .

بعد هذا العرض الذى أوضحنا من خلاله ما نعنيه بـ (ظرفية الليل) فى الإبداع الشعرى ، من حيث قيام الشاعر لغرض فنى أو لعامل نفسي بنسج بعض الأحداث أو الصور الجزئية بخيوط الليل فى سياق القصيدة ، يمكننا حصر أهم حالاتها الأخرى التى نقابلها فى الصياغة الشعرية ذات الرؤى الرومانسية فى شكلين فنيين هما :

اتخاذ الليل إطارا عاما توضع فيه الرؤى أو التجارب الشعرية بكاملها . ويكثر هذا مع الرؤى الشعرية التى تتخذ الأسلوب القصصى شكلا تعبيريا ، أو اتخاذ الليل بكثرة

إطارا زمنيا جزئيا للأحداث الممضة أو القاسية بقصد جعلها أشد حدة وأكثر إيلاما كحادثى الوفاة والوداع . . . الخ .

وفيما يلى نقدم نماذج مختصرة لها تين الظاهرتين الفنيتين .

ألقى حافظ إبراهيم قصيدة فى حفل أقامته جمعية رعاية الطفل بالأوبرا ، فكان أول ما استهل به القصيدة قوله : (٢٦)

هذا صبـــــىَ هـــــائـــمٌ (تحت الظلام) هيـــــام حـــائرْ
أبلى الشـــــقاء جـــديـده وتقلّمـــت منـه الأظـافـــــرْ

فهو يدرى أن وصف شقاء الطفل اليتيم أو المشرد حين يجنّه الليل ويشمله الظلام يكون أوقع وآلم للنفوس وبالتالى يكون أكثر استدرارا لعطفها واستجلابا لمساعدتها ، وفى القصيدة أيضا يقدم صورة أخرى لهذا الطفل وأمثاله من البائسين :

كـم مثـله (تحـت الدجـــى) أســـوان بـادى الضـــر طـــائـر
خـــزيان يخـــرج فى الظـــلا م خـــروج خفـــاش المغـــاور

فنراه ما زال معنيا بعرض ملامح التعاسة من خلال الليل ، ظلامه ووحشته لتكون أعمق وأمض تأثيرا فى نفوس المستمعين . ولكن الليل عند حافظ وشعراء جيله من المحافظين لا يمثل رؤية شعرية كاملة تشمل سائر العمل الفنى ولم يظهر الليل بوصفه قيمة شعرية هامة إلا عند شعراء المهجر ومن زامنهم ومن تلاهم من الشعراء ذوى النزعة الرومانسية ، الذين أثقلوا كاهل الليل بشكواهم وبما أودعوه فى جيوبه من أسرارهم . وقد اعتاد هؤلاء أن يجعلوا الليل إطارا يضعون بداخله من الموضوعات ما يشاكله قسوة ووحشة ليبدو من خلاله أكثر جهامة وأشد ترويعا .

وأراد إيليا أبو ماضى أن يصور حال كثيرين من الناس يستصغرون شأنهم ويحسون ضآلتهم فى الحياة مع أنهم يُسدون خدمات جليلة ويقومون بأعمال نافعة واستطاع أن يبين مشاعر هؤلاء فى أسلوب قصصى صوّر من خلاله مأساة حجر ضئيل يشغل حيزا صغيرا فى سد هائل وقد استقل هذا الحجر شأنه واستهان بوظيفته فى هذا البناء الضخم الذى يحجز أمامه طوفانا من الماء . وراح ينعى حظه ويبث الليل شكواه : (٢٧)

ســـمع الليـــل ذو النجـــوم أنينـا وهو يغشـــى المدينـــة البيضـــاءَ
فانحنـى فوقهـا كمسترق الهمس يطيـــل الســـكوت والإصغـــاءَ
فـرأى أهلهـا نيامـا كأهل الكهـف لا جلبـــةً ولا ضـــوضـــاءَ

ورأى السـد خلفها محكم البنـ يـان والمـاء يشبـه الصحـراءَ
كان ذاك الأنـين من حجـر فى السد يشـكو المقـادر العميـاءَ

ويمضى الشاعر فى وصف تبرم هذا الحجر وسخطه إلى حدٍ قرر عنده الانتحار ، أو التخلى عن أداء مهمته المتواضعة فهوى من مكانه في الماء تاركا وراءه فجوة أخذ الماء يتدفق منها طوال الليل . ولم يطلع الصبح إلا والطوفان يُغرِق الناس ويأتى على المدينة التى كانت وادعة آمنة :

وهـوى من مـكانه وهو يشكو الـ أرض والشـهب والدجـى والسـماء
فتـح الفجـر جفنـه فـإذا الطـو فـان يغشـى المدينـة البيضـاء

واتخاذ إيليا أبى ماضى الليل مسرحا لهذه المأساة يساعده علي التصعيد الدرامى ومضاعفة إحساس المتلقى بمحنة هذا الحجر من جهة وفداحة الخطب الذى ألم بأهل المدينة من جهة أخرى .

ولقد كانت الشاعرة نازك الملائكة محقة عندما لقبت نفسها بـ (عاشقة الليل) وجعلت هذا اللقب عنوانا لديوان يحوى كمًا عظيما من شعرها الرومانسى . ومن يطالع شعرنا نازك الملائكة فى المرحلة الرومانسية من حياتها يجد أن معظمه نبت فى تربة الليل واستمد من أوهامه وهواجسه .

ولعل قولها تصف نفسها فى مطلع قصيدة " الفيضان " : (٢٨)

هى ذى ياظـلام عاشـقة الليـ ـل تطيـل التحديـق تحت الدياجـى

أفضل ما يقال فى وصف علاقتها بالليل وشغفها به . هذه العلاقة التى أشارت إليها فى مواضع كثيرة كقولها : (٢٩)

الليـل يسـأل من أنـا
أنـا صمتـه القَلِـقُ العميـق الأسـوَدُ
أنـا صمتـه المتمـردُ
قنَعـت كنهـى بالسـكونْ
ولففـت قلـبى بالظنـونْ
وبقيـت سـاهمة هنـا

فهى صورة مصغّرة من الليل ، أسراره وصمته وهواجسه .

وقد ظهرت آثار هذه العلاقة فى كثير من شعرها ، ضمّخته بأصباغ الليل القاتمة

وخطراته الموحشة بل جعلت الليل إطارا نفسيا وضعت فيه العديد من تجاربها الشعرية المريرة لتزيد من مرارتها وقسوتها . وقد بلغت هذه الظاهرة الإبداعية حدا قد يجعل الناقد يفسرها على أنها لازمة نفسية ترتبط بعواطفها المشبوبة وخيالها الرومانسى المتوقد فى تلك المرحلة المبكرة من حياتها الفنية أكثر من كونها وسيلة فنية مقصودة . صحيح أن هذا الصبغ الدرامى قد تجاوز تلك المرحلة الرومانسية الحادة من عمرها الفنى وتخطاها إلى ما بعد ذلك ولكن من يتتبعه يجده أقل عمقا وانتشارا .

وتوضيح هذه الظاهرة فى شعر نازك الملائكة وغيرها من الشعراء قد يتطلب عرض قصائد كثيرة بكاملها وهو أمر لا يتناسب وطبيعة البحوث الأدبية لأنه عمل من أعمال الإحصاء والحصر . ولهذا سأكتفى ـ محافظة على الروح الأدبية للبحث بالإشارة إلى بعض القصائد موطن الظاهرة وبتقديم مقاطع من بعضها .

مما يلفت النظر فى شعر نازك الملائكة أنها تربط دوما حوادث الغرق بالمساء وتجعل الليل إطارا تقدم من خلاله هذا الحادث الفاجع . ولنقرأ لها قصائد " الفيضان " و " مرثية غريق " و " المقبرة الغريقة " لنقف على هذا الأمر الذى بدا كأنه بعض الثوابت الفنية التى تحافظ عليها .

تستهل قصيدة " الفيضان " بوضع هذا الإطار المظلم لتصف بداخله حال قرية داهمها النهر : (٣٠)

هى ذى يا ظلام عاشقة الليـ ـل تطيل التحديق تحت الدياجى
وقفت عند شاطئ النهر تصغى لأنين الرياح والأمواجِ
وترى الليل غيهبا راعب الظلّ على رائع من الأثباجِ
وتحس الحزن العميق لحقلٍ أغرقته المياه خلف السياجِ

* * *

وقفتْ فى الدجى تحس الأسى المرّ وتبكى فى مسمع الظلماتِ
وترى بالخيال ما حلّ بالقر ية والبائسين من ويلاتِ
فجأتهم تحت الدجى لجة المو ج فباتوا صرعى القضاء العاتى
ومضوا يضربون فى ظلمة الليـ ـل وما من مَنجىً من المأساةِ
وتعالى تحت الظلام صراخ رددته الرياح للأشجارِ
هو صوت الأحياء فى لجة الموت وصرعى الأمواج والأقدارِ

عبثـا تضرعـين عاشـقة الليـل لقلـب الظـلام والأسـرارِ
عبثـا فالحيـاة سـنتها الحـز ن وحكم الآهـات والدمـع جـارِ

فهؤلاء الناس البؤساء ، لم تفجأهم لجة الموج إلا تحت جنح الليل الذي سد أمامهم منافذ الهرب بظلامه وزاد من هولهم برهبته ، فكثر منهم الصرعى وقل الناجون . وهذه الملامح الرهيبة ما كان بإمكان الشاعرة أن تحققها وهى تصور عنف هذا الفيضان لو أنها جعلت النهار مسرحا لأهواله وميقاتا لحدوثه .

وها هى فى " مرثية غريق " تبادر بإلقاء ظلال الليل وكآبته لتغلف به هذا الحادث ، تقول : (٣١)

أيهـا النهـر لقد جـاء المسـاء ومشى الصمت على الموج الوديع
وخبـا في الأفـق الحـالى الضيـاء وتلاشـى وقـع أقـدام القطيـع
سكـن الـكون سـوى الموج المـدوّى بأسـاطير العصـور الخـاليات
لـم يـزل يشـكو المـقادير ويروى أبـدا للـكون أسـرار الحيـاةِ

* * *

إيـه يا ضفـة مـاذاك الخيـال ؟ فوق صـدر المـوج تحت الظلمات
أإلـه قـد تصبّـاه الجمـال ؟ أم غـريق عـزه حبـل النجـاة ؟
حدثينـى ما أرى خلـف السـياج فهـو يا ضفـة فى الليـل مريـب
ما الـذى ألمـح فى هذى الدياجـى ما تُـراه ذلك الشـيئ الغريـب ؟
هيـكل يغطـس حينـا ثم يطفـو تائهـا تحت دجـى الليـل الحـزين
بشـر هـذا تـرى ؟ أم هو طيـف ؟ ليت شـعرى يا دياجـى ما يكون ؟

. . . . . الخ .

وواضح من خلال ما عرضنا من أبيات هذه المرثية أن خيال الشاعرة مشدود إلى الليل لا يكاد يبارحه فالليل مرتعه وملهمه .

فإذا تركنا حوادث الغرق إلى " السفينة التائهة " التي ترمز بها إلى روحها الضالة التي تبحر فى المجهول لا تدرى لها مرفأ تأوى إليه وجدنا أن أول ما فعلته لتصوير هذه الرحلة الشاقة هو تهيئة الجو الملائم الذى يوحى لأول وهلة بهذا المضمون النفسى ويقدم له . ولابد أن يضطلع (الليل) كالعادة بدور هام فى إعداده . وكالعادة أيضا تبد أنازك الملائكة بنثر أكدار الليل وقتامه من أول بيت : (٣٢)

فى لجـة البحـر الرهيـب سـفينة تحـت المسـاء
ألقـت بها الأقـدار فى لجـج المنـايا والشـقاء
الريـح تصـرخ حـولها وتضـج فى ظلـم الفضـاء
والمـوج يضـربهـا ويلقيهـا على شـفة الفضـاء

* * *

سـارت ولا ربـان يهديهـا إلى الشـط السـحيق
حـيرى يخادعهـا الظـلام فلا شـعاع ولا بريـق
من فوقهـا هـول الرعـود وتحتهـا اللـج العميـق
سـارت ومـا تدرى إلى أيـن المصـير وما الطريـق

ولا شك فى أن الإبحار (تحت المساء) أشد وطأة على راكبى البحر منه فى وضح النهار . وهو بالتالى أنسب للمضمون النفسى الذى اعتزمت الشاعرة تصويره وهو الإحساس بالضياع وانعدام الأمل . وكل ملامح الصورة مخيفة ، وقدر كبير من إيحائها عائد إلى صراخ الريح وعبثها بهذه السفينة بين سدف الليل . والريح كما ذكرت من قبل من أهم عوامل الفزع التى يحرص الخيال الرومانسى علي ضمها إلى الليل لإذكاء مخاوف النفس وبعث الانقباض فى طياتها .

وقصيدة " مر القطار " من أدق وأجود ما قدمت من المشاهد التي تستمد أصباغها من وعاء الليل العميق الواسع ، تصف الشاعرة فيها ما يعترى المنتظرين فى محطات القطار من سأم وهم يرقبون الساعات ويتسمّعون صفير القطار فى سكون الليل وظلامه الموحش ، كما تصف ما يعترى الركاب أنفسهم من ضجر لطول رحلتهم فى غياهب الليل الداجية التى لا يتراءى لهم فيها شعاع يُحى فى نفوسهم أمل الوصول . وإذا كان انتظار القطار وترقبه وكذلك طول الرحلة فيه أمرا ممضا للنفس ـ فإن الشاعرة تدرك بشاعريتها وخصب خيالها أن هذه المعاناة تزداد متى حدث ذلك بين أطواء الليل ، أو أن بإمكانها أن تجعل القارئ يحس هذا متى قدمت هذه المشاهد ملتحفة بسجوف الليل .

ولننظر كيف تبدأ الشاعرة بإعداد الأرض وتهيئة المسرح الذى ستحرك عليه مناظرها الباهتة السقيمة . وهذا الإعداد يتفق وروح هذه المشاهد ويمهد للدخول فى عالمها النفسى تقول : (٣٣)

الليـــــــل ممتـــد الســـــكون إلى المـــدى
لا شيـــئ يقطعـــه ســـوى صـــوت بليـــد
لحمامـــة حـــيرى وكلـــب ينبـــح النجـــم البعيـــد
والســـــاعـــة البلهـــــاء تلتهـــم الغـــدا
وهنـــــاك فى بعـــــض الجهـــــات
مـــــر القطـــــار
عجـلاته غـزلـــت رجـــاء بـت أنتـــظر النهـــار
من أجـــــلـــه . . مـــــر القطـــــار
وخبـــــا بعيـــــدا فـى الســـــكون
خلـــــف التـــــلال النائيـــــات
. . . . . الخ .

فى هذا الجو الذى يخيم عليه الليل ويسوده السكون أخذت الشاعرة تعرض الشخوص وتنفض المشاعر فى وصف دقيق ، فيكون لذلك كله وقع آخر غير ما نعتاده لأنه جاء متلبسا بحلكة الليل متنفسا هواءه .

ويمكننا الوقوف علي حالات كثيرة لهذه الظاهرة الفنية فى شعر الشابى والهمشري والسياب وصلاح عبد الصبور وملك عبد العزيز وفدوى طوقان . . . الخ وكثرتها ينبغى أن تكون موضع اهتمام الدارسين والمختصين .

* * *

وأما الشكل الثانى من أشكال " ظرفية الليل " فهو اعتياد الشعراء على جعل الليل إطارا زمنيا جزئيا توضع بداخله حوادث قاسية كالموت أو الوداع . . . الخ والموت لا يرتبط بليل أو نهار فكل حيّ تدركه منيته بحسب ما قدّر له . ولكن الشعراء من أجل أن يجعلوا حادثة الوفاة أشد رزءا وأكثر ترويعا يتدمونها مغلفة بغلالة الليل . وقد شاع هذا الأمر لدرجة أن أصبح من الندرة أن نجد وفاة تتم قبل قدوم المساء وإطباق الظلام .

استهل حافظ إبراهيم قصيدته فى رثاء سعد زغلول بقوله : (٣٤)

إيه يا ليـل ، هل شـهدتَ المصـابا كيف ينصب فى النفوس انصبابا ؟ !
بلّغ المشـرقين قبـل انبـلاج الصبـ ـح أن الرئيـس ولّـى وغـابـا

ولا يكتفى حافظ بأن جعل الليل مسرحا لهذا الخطب الجلل ليجعله أقسى على النفوس وهو ينصب فيها ممتزجا بحلكة الليل ، بل راح يحوك من ظلامه ثياب حداد يسد لها على الكون فيحيله إلى ليل متصل :

قُدَ يا ليـــل من ســـوادك ثـــوبا للـــدارى وللضحـــى جلبـــابا
وانســج الحالـكات منـك نقـابا واحـب شـمس النهـار ذاك النقـابا

الليل والموت إذن صنوان وقرينان متلازمان فى خيال الشعراء . الموت يجعل الليل أكثر رهبة والليل يجعل الموت أكثر حدة وأشد فجيعة .

وثانى هذه المناحات الليلية يقدمها أحمد رامى لأم قامت تُعول على ابنها الذى لفظ أنفاسه فى منتصف الليل : (٣٥)

قامـــت علـى طفلهـــا الصغـــيرِ تبكيـــه بالمدمـــع الغـــزيـــرِ
(والليـــل) وحـــف الإهـــاب داجٍ كـــــأنـه ظلمـــــة القبـــورِ
والريـــح تحـــكى وقـــد أرنّـــتْ نـــواح ســـربٍ من الطيـــورِ
(والنجـم حـيران فى الدياجـى) ليـــس بخـــابٍ ولا منـــيرِ

فهذه اللوحة بدون الصبغ الليلى تفقد الكثير من تأثيرها الموجع وهيئتها الفاجعة ، فوقع الكارثة على الأم فى هذا الوقت أشد ترويعا لها ، كما أن إعوالها ونياحها وهو يشق طريقه إلى الآذان مع نواح الريح وسط الظلام والسكون قابض لنفوس الهاجعين فى هدأة الليل .

ولجبران خليل جبران نص نثري بعنوان " فى ظلام الليل " يصف فيه كيف كان الموت يتخطّف الناس أيام مجاعةٍ حلّت بهم ، وفيه يمسك بخيطين ينسج منهما معا صوره الحزينة : ظلام الليل والموت ، ولم يفارق هذان الخيطان خياله حتى انتهى من وصف هذه المأساة .

ولئن كان النثر هو وعاء التعبير فإن المهم هو الرؤية والخيال المبدع ، ولولا خشية اتساع نطاق البحث ما قصرناه على شعر دون نثر ، يقول جبران : (٣٦)

" فى ظلام الليل ينادى بعضنا بعضا ، فى ظلام الليل نصرخ ونستغيث وخيال الموت منتصب في وسطنا ، وأجنحته السوداء تخيّم علينا ، ويده الهائلة تجرف إلى الهاوية أرواحنا أمّا عيناه الملتهبتان فمحدقتان إلى الشفق البعيد . فى ظلام الليل يسير الموت ونحن نسير خلفه خائفين منتحبين وليس بيننا من يستطيع الوقوف وليس فينا من له أمل بالوقوف . فى ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه ، وكلما التفت الموت إلى الوراء يسقط

منا ألف إلى جانب الطريق . . . فى ظلام الليل ينادى الأخ أخاه والأب أبناءه والأم أطفالها وكلنا جائعون متضوّرون ، أما الموت فلا يجوع ولا يعطش ، فهو يلتهم أرواحنا وأجسادنا ويتشرب دماءنا ودموعنا ولكنه لا يشبع ولا يرتوى . . . الخ النص "

إن الموت حادث رهيب ويزداد رهبة إذا داهم الناس فى المساء وارتفعت بسببه أصوات الثكالى تهتك أستار الظلام وتقض مضاجع الهجود والنيام . ولهذا حرص جبران على الجمع بين الاثنين كما حرصت نازك الملائكة أيضا على ذلك فى قصيدة " الكوليرا " التي تصف فيها فتك وباء الكوليرا اللعين بالمصريين ، وكثرة ضحاياه ، تقول : (٣٧)

(سكن الليل)
اصغ إلى وقع صدى الأنات
(فى عمق الظلمة) ، تحت الصمت ، على الأموات
صرخات تعلو ، تضّطرب
حزن يتدفق ، يلتهب
يتعثر فيه صدى الآهات
فى كل فؤاد غليان
فى الكوخ الساكن أحزان
فى كل مكان روح تصرخ (فى الظلمات)
فى كل مكان يبكى صوت
هذا ما مزقه الموت
الموت ، الموت ، الموت

وتنتاب الشاعرة أيضا حالة من اليأس والقنوط ، فتقف " على حافة الهوّة " مقررة الانتحار للخلاص من عذابها الروحى ، ولا ترى أمامها سوى الليل مناخا يجعل هذا الحادث أشد مأسوية : (٣٨)

جئتكِ يا هوّة (تحت الدجى) لعلنى ألقى لديك الخلاص
لم يبق لى فى الأرض ما يُرتجى ولم يعُد لى من رحيلى مناص
جئتكِ حيرى (فى ظلام الدجي) يدفع أقدامى جنون الألم
جئت وروحى فزعٌ صارخ باسم إله الصمت باسم العدم

الموت والليل فى خيال نازك الملائكة كالشئ وظله أوهما إناء ان متصلان كل منهما يزوّد الآخر بطعمه وصبغه . ولأنها تحس بخيالها رهبة الموت متى جاء متشحا بالظلام يدب فى سكون المساء نراها فى موضع آخر تتمنى ألاّ تدركها المنية بليل : (٣٩)

لا أحب الظلام فليك موتى فى غد حين تغرب الظلماتُ
حين تضحك الطبيعة فى الوا دى الأغن الحالى وتشدو الرعاة

وحين تهيأ الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة المحديث عن وفاة عبد الناصر كان أول ما أستهل به أن أطلق صوت النعىَ فى منتصف الليل ليجعل النبأ أكثر إيلاما والنفوس به أشد هلعا : (٤٠)

(فى منتصف الليل)
تحت ملاءات الأطفال
ينفجر النبأ الفاجع
مات عظيم هذى الليله

وانتشار هذه الظاهرة الإبداعية هو ما جعلنا نتحسس جذورها فى مصادر الشعر القديم فلم نجد لها إلاّ ملامح بسيطة ، كقول عدى بن زيد : (٤١)

سأكسب مجدا أو تقوم نوائحٌ (علىّ بليل) نادباتى وعوّدى
ينحن على ميْت ويعلين رنّة تؤرق عينىْ كل باكٍ ومسعد

مما يجعلنا نقرر أن هذه الظاهرة وليدة الشعر الحديث والخيال الرومانسى بالذات فهو الذى غذاها وجعل لها وجودا فنيا واسعا .

* * *

الاستهلال بالليل :

وفى حالة اتخاذ الليل إطارا للتجربة الشعرية ، فإن الشاعر غالبا ما يبادر فى مطلع القصيدة بمناجاة الليل أو بسط ردائه الأسود مهيّأ هذا الإطار فإن لم يكن الليل إطارا يضع الشاعر فيه رؤيته فإن استهلال القصيدة به قد يكون ملائما للحديث عن حالات شعورية معّينة كاليأس والملل والانقباض والغربة .

وقد بلغت ظاهرة الاستهلال بالليل عند بعض الشعراء الرومانسيين وبخاصة نازك الملائكة حدا جعلها تشبه المقدمة الطللية التي اعتاد الشعراء القدامى افتتاح قصائدهم بها إما لشحذ ملكاتهم الشاعرة أو لتهيئة نفوس المتلقين .

وقد نجد فى الشعر القديم بضع قصائد استهلها الشعراء بذكر الليل كقول المتنبى : (٤٢)

ليـــالـيّ بعـد الظـاعنين شـــكولُ طـــوال وليـــل العاشـــقين طـــويـلُ

وكقول الحصري القيروانى الشهير :

يا ليـــل الصـــب متـى غـــده ؟ أقيـــام الســـاعـة مـــوعـده ؟

ولكن الاستهلال بالليل فى هذين المثالين له ما يبرره موضوعيا ، إذ إن الشاعر منهما لما بدأ بالنسيب أراد وصف ما يلقى المحبون من عذاب يتمثل بعضه فيما ينتابهم من أرق والحديث عن الأرق يقتضى بالضرورة ذكر الليل . فالاستهلال بالليل هنا ليس استهلالا نفسيا من حيث كونه معبرا عن رؤية خاصة تجاهه أدت إلى البدء بذكره . وهذا الاستهلال النفسى أو الفنى المقصود لا يوجد غالبا إلاّ فى الشعر الرومانسى . أقول (غالبا) لأننا نجد قليلا من ملامحه فى شعرالمحافظين كاستهلال حافظ رثاءه لسعد زغلول الذى سبق أن أشرنا إليه ، فقد لا تكون ثمة علاقة واقعية بين الحادث والليل تقتضى الاستهلال به ومناجاته بمعنى حدوث الوفاة حقيقةً فيه . وإنما أراد الشاعر من خلال رهبة الليل وأحزانه أن يحفز النفس فى مستهل القول ويشيع فى حناياها جوا من الوحشة والانقباض يناسب هذا الخطب الجلل .

وفى مقابل هذه الحالات النادرة التى تطالعنا فى شعر المحافظين نجد حالات كثيرة جدا فى شعر الرومانسيين ذكرنا كثيرا منها فيما عرضنا من شعرهم ونذكر منه أيضا قول نازك الملائكة فى مطلع مطوّلتها " مأساة الإنسان " : (٤٣)

عبثـا تحلمـــين شـــاعـرتى مـــا من صبـــاح لليـــل هـذا الـوجـــود

فكان هذا المطلع خير ما ينم عن الرؤية النفسية القاتمة للحياة والأحياء التي نجحت الشاعرة فى إشاعتها فى كل أنحاء القصيدة . والليل فى هذه المطوّلة يؤدى مهمة بيانية وتعبيرية بالغة الأهمية ويلهم الشاعرة كثيرا من صورها الحالكة اليائسة .

وفى قصيدة " بين فكى الموت " وقد كانت الشاعرة مريضة مشرفة على الموت نجد أول زفرة تخرج من صدرها الحرج ملونة بظلام الليل وأحزانه : (٤٤)

يا مساء الصيف الحزين خبا حبى لما فيك من أسى وخشوع

وتبرمت بالسكون وبالأشباح واعتضت عنهما بدموعى

لم يعد فى قلبى هوى لدياجيك فيارحمة بقلبى الوجيع

رحمة يا ظلام ، يا صمت يا أسرار بالخافق الشقى المروع

كما تستهل قصيدتها " غرباء " بإلقاء صبغ الليل الأسود موحيا بكدرة وقتام كل

الأحاسيس التى تناولتها فى هذه القصيدة : (٤٥)

أطفـــئ الشـــمعة واتركـــنا غـريبـــين هنـــا
نحن جـــزءان من الليـــل فمـــا معنـــى الســـنا
يســقط الضـــوء على وهمـــين فى جفـــن المســـاء
يســقط الضـــوء على بعـض شـــظايا من رجـــاء

ولايفوتها أن تلجأ أيضا إلى ذلك فى قصيدة " الخيط المشدود فى شجرة السرو " حيث تقول : (٤٦)

فى ســـواد الشـــارع المظلـم والصمـت الأصـم
حيـث لا لـــون ســـوى لـــون الدياجـى المدلهـم
حيـث يرخـــى شـــجر الدفـــلى أســـاه
فـــــوق وجـــــه الأرض ظـــــلا
قصـــة حدثنـــى صـــوت بهـــا ثم اضمحـــلا
وتلاشـــــت فى الديـاجـــــى شـــــفتاه

وإن كنا قد تمثلنا بشواهد عديدة من شعر نازك الملائكة فلنبين عمق أثر الظاهرة وقيمتها كعنصر إبداعى يلح على الشاعر فيتكرر فى كثير من أعماله وهذا مالا يتضح لو أننا رحنا نقدم شاهدا لكل واحد من الشعراء .

* *
*

تذييل

لم يقتصر تأثير الليل فى خيال الشعراء على ما عرضنا من مظاهر نفسية وفنية تجلّت فى الربط المستمر بين الليل والحزن وفى توجّه الشعراء إلى الغروب وإلى الليل واتخاذه إطارا نفسيا وفنيا لكثير من التجارب والرؤى الشعرية وكذلك فى كثرة استهلال الشعراء الرومانسيين قصائدهم بذكر الليل على نحو يشبه الاستهلال بالمقدمة الطللية فى الشعر القديم . لم يقتصر الأمر على ذلك وإنما امتد هذا التأثير إلى لغة الشعر لتظهر فيها بعض التراكيب الإضافية والصفات الحادة التى تنم عمّا لليل من وقع مؤلم فى نفوس كثير من الشعراء .

وصرنا نرى عبارات مثل : " ظلمة الأحزان " و " ليل المنايا " و " ظلام الرزايا " و " ليل الملمة " و " ليل اليأس " و " مساء الحزن " . . . إلخ وهى عبارات مضاعفة السواد ، وذلك لأن (الحزن والمنايا والرزايا والملمات واليأس) فى حد ذاتها أمور محضة وقاسية لاتحتملها النفس وإضافة الليل إليها يجعلها أقبح وأمض .

يقول إبراهيم ناجى لليل : (٤٧)

لم أكن أطمع أن تضمر لى ... آسيا يُبرئ لى الجرح الدفينا
لم أكن أعلم (يا ليل الأسى) ... أن فى جنحك لى فجرا جنينا

وتقول نازك الملائكة : (٤٨)

ذاك شأن الإنسان يا أيها الصياد يا شاكيا (ظلام الرزايا)
فى صراع مع العناصر لا يهدأ حتى يأوى لوادى المنايا

وتصف حال قيس بن الملوّح بعد وفاة ليلى فهو قد أصبح : (٤٩)

يتمنى (ليل المنايا) ويدعو ... ه إليه بأعذب الأسماء

فالشعراء بهذه التراكيب الإضافية التى يُستعان فيها بالليل وعناصره يعملون على زيادة حدة الأحزان والمصائب وجعلها أشد وطأة على النفس .

ومن الصفات " الليلية " التى تحمل هذا الصبغ النفسى القاتم ما جاء فى قول ناجى : (٥٠)

يا ليالى العمر ما سر الليالى ... البطيئات الممالات الطوال
مسرعات مبطآت ولها ... خفة الموت وأثقال الجبال
كاسفات البال عرجاء المنى ... عاثرات الحظ شوهاء الظلال

فالأبيات على قصرها قد تضمنت عشر صفات لليل جمعت أغلب ما يمكن نسبته إلى الليل من قبح ، ويهمنا من هذه الصفات على وجه الخصوص ما جاء بالبيت الأخير منها لجدتها ولما أسقطه الشاعر فيها على الليالى من إحباطه ويأسه .

ولناجى فى وصف الليل عبارات كثيرة تحمل إحساسا عميقا بالكراهية فهو " ليل ضرير " وهو " لعنة كافر " وهو " غليظ القلب " وهو " حجرى الكبد " . (٥١) وللشعراء فى هذا قول كثير .

وما جاء فى الطرف المقابل من صفات تعبر عن ابتهاج الأنفس بالليل فقليل جدا لا يؤبه له عند مقارنته بما جاء معبرا عن مرارة النفس وسوء نظرتها إليه .

معجم الليل :

ومما أفرزه الموقف الرومانسى من الليل غير هذه التراكيب الإضافية والصفات القاسية ما يمكننا أن نسميه " معجم الليل " ونعنى به أمرين :

الأول :

ظهور دلالات مجازية جديدة للفظ " الليل " مفردا وجمعا ، تختلف عما يُستخدم فيه ووضع من أجله ، من إشارة إلى تلك الفترة الزمنية المعلومة من اليوم . وبعض هذه الدلالات المجازية قديم ، لكن يرجع الفضل للخيال الرومانسى فى ذيوعها وإثرائها بدلالات أخرى جديدة ، إذ وجد " الليل " وعاء يمكن أن يتسع لكثير من المعانى والحالات التى لها بقسوته نسب .

الثانى :

ظهور ألفاظ معينة يكثر دورانها فى فلك الليل كلما عنّ للشعراء حديث عن معاناة النفس فيه . وهذه الألفاظ يمكننا أن نطلق عليها مصطلح " المصاحبات اللفظية لليل " .

* من الدلالات التى اكتسبها لفظ " الليالى " فى صيغة الجمع ما نجده فى قول الدكتور عزت شندى موسى للوردة الذابلة : (٥٢)

رأيتك فوق غصنك تذبلينا وقد كنتِ النضارة والفتونا
فهل أضنتك غدرات الليالى ؟ وهل أعيتك ويلات السنينا ؟

فالشاعر يستخدم لفظ " الليالى " فى معنى " الدهر " أو " الزمان " ، وهذا الاستخدام يرتبط دوما بمعانى القهر والغدر وفى كل ما كان ينسب عادة إلى (الدهر) من قسوة فى تصريف أحوال البشر .

وإنما سوّغ لهذا الشاعر ولغيره أن ينسبوا إلى " الليالى " هذه المعانى ما عُرِف عن الليل

من عنف وشدة .

فلا نكاد نطالع هذا اللفظ إلا وقد تعلقت به معانى القسوة والفتك . ومن ذلك ما جاء فى قول الشاعر أيضا : (٥٣)

يا خليلـىّ هل المـاضى يعـــود ؟ والليـالى بالذى اغتالـت تجـــود ؟

كما جاء فى قول إبراهيم ناجى : (٥٤)

الليـــالى يا مـا أمـرّ الليـــالى غـيبت وجهـك الجميـل الحبيبـا

وقول الشابى : (٥٥)

والليالى مغاور تُلحد اللحن وتقضى على الصدى المسكين

وقول فدوى طوقان : (٥٦)

وحـولى من الذكـريات الخـوالى طيـوف تثـير لهيـب الحنـين

أخـاف تكـر عليهـا الليـالى وتدفـن تحـت ركـام السـنين

وأخيرا قول الهمشري : (٥٧)

وكنـت بالدهـر دومـا مسـتهزئا أسـتخف

حـتى لقيـت شـديدا من الليـالى يشـف

والشاعر كما هو واضح يتحدث عن (الدهر) فى البيت الأول ، ثم يستبدل به (الليالى) فى البيت الثانى وكأنها مرادفه ، ويسند إليها كل ما يلقاه من عنت .

ولم أقف على هذه الدلالة للفظ " الليالى " واستخدامه فى معنى " الدهر " أو " الزمان " فيما قرأت من شعر جاهلى على كثرته . وكان الشعراء الجاهليون كلما نسبوا الشرور نسبوها صريحة إلى (الدهر) كقول حسان بن ثابت : (٥٨)

فلا المـال ينسـيني حيـائى وعفتـى ولا واقعـات الدهـر يفللـن مـبردى

وكقول أحيحة بن الجلاح : (٥٩)

صحـوت عن الصبـا والدهـر غـول ونفـس المـرء آونـة قتـول

وكقول أبى ذؤيب الهذلى يرثى أبناءه : (٦٠)

(والدهـر) لا يبقى على حـدثانه مسـتشعر حلـق الحـديد مقنـع

وفى القصيدة نفسها :

وتجـلدى للشـامتين أريهـم أنى لريـب (الدهـر) لا أتضعضـع

وكقول متمم بن نويرة فى رثاء مالك أخيه : (٦١)

ولست إذا ما (الدهر) أحدث نكبة بألوث زوار القرائب أخضعا

فإذا لم ينسب الشعراء الشرور إلى الدهر - وهو نادر - نسبوها إلى " الأيام " أو " الزمان " ، كقول النمر بن تولب : (٦٢)

فحييتَ من شحط بخير حديثنا ولا يأمن (الأيام) إلا مضلل

وكقول عدى بن زيد : (٦٣)

كفى زاجرا للمرء (أيام دهره) تروح له بالواعظات وتغتدى

وكقول أبى ذؤيب فى مرثيته السابقة :

كم من جميعى الشمل ملتئمى الهوى كانوا بعيش ناعم فتصدعوا

فلئن بهم فجع (الزمان) وريبه إنى بأهل مودتى لمفجّع

وأول (ما وقعت عيناى عليه) من استخدام مجازى (لليالى) كان فى قول المتنبى من رثائه لجدته : (٦٤)

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهتنى لم تزدنى به علما

إن استخدام (الليالى) بدلا من (الدهر) والاجتزاء بها عنه وهى منه بمثابة الجزء من الكل ، لدليل قوى على ما لهذا الجزء من صفات وطاقات نفسية أهّلته لأن يوضع هذا الموضع وينهض بهذه المهمة التعبيرية . ولقد أقبل الشعراء على استخدامه فى دلالته الجديدة حتى نُسيت دلالته الأصلية . ولكنه لم يبلغ من الذيوع والانتشار ما بلغه فى العصر الحديث عند المحافظين ثم عند الرومانسيين الذين وسعوا دائرة استعماله حتى ليصادفنا أحيانا فى الصفحة الواحدة عدة مرات فى شعر نازك الملائكة والسياب والشابى وفدوى طوقان وملك عبد العزيز .

ولم يكتف الخيال الشعرى الحديث باستخدام لفظ (الليالى) بكثرة وربط الشرور والمصائب به ، فاستحدث دلالات أخري لألفاظ (الليل) وعناصره مثل : (الظلام) و (الدجى) تنم عما فى نفوس الشعراء تجاه الليل من إحساس بالرهبة والنفور . من هذه المعانى الجديدة ما جاء فى قول أبى القاسم الشابى : (٦٥)

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدَرْ

ولابد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسرْ

وفى قوله أيضا : (٦٦)

الفجـر يسـطع بعـد الدجـى ويأتـى الضيـاءْ
ويرقـد الليـل قسـرا على مهـاد العفـاء
وللشـعوب حيـاة حينـا وحينـا فنـاءْ

وهذه المعانى عادة ما تكون " الظُلم " أو " الاحتلال " أو " الأرزاء " أو " التعاسة " أو " اليأس " . . . . . الخ .

وكان طبيعيا أن تستخدم الألفاظ المقابلة مثل (النهار) وعناصره مثل : (الفجر) (والشمس) و (الضياء) فى معان جديدة مقابلة أيضا مثل " التحرر " و " السعادة " و " الأمل " .

وما أكثر ما جاء " النهار " ومشتقاته رموزا للسعادة وتجدد الأمل ، وكلها رموز تعكس ما ترسّب من إحساس فى نفوس الشعراء لكل من الليل والنهار . وقد اجتمع الضدان فى قول فدوى طوقان تصف حالها : (٦٧)

وكان أقسـى ما شـجا نفسـها وابتعـث الراعـب من هجسـها
تدفـق الظلمـة فى يـومهـا فى غدهـا المحـروم فى أمسـها
ظلمـة عمـر كـل أيامـه ليـل تدجّـى فى مـدى حسـها
النـور أين النـور ؟ هـل قطـرة تسـيل منـه فى دجـى يأسـها ؟
من أيـن والأقـدار قد جففـت منابـع الأضـواء من نفسـها

فالظلمة والليل والدجى رموز للتعاسة والحظ العاثر والنور والأضواء رمزان للسعادة والأمل .

وأما ظاهرة المصاحبات اللفظية لليل فيمكن أن نلاحظها فى عديد من النصوص التى قد مناها فى سائر صفحات البحث ، إذ اعتادت العين رؤية بعض الألفاظ يتكرر ظهورها كلما اعتزم الشاعر وصفا لليل أو حديثا عن أثر الغروب فى النفس . فكما تجذب قطعة الحديد الممغنط إليها برادة الحديد ، يجذب الحديث عن الليل هذه الألفاظ فنرى (الأرق والحزن والدموع والوحشة والهموم والطيف والذكرى والموت والفناء . . .) .

وقد أضاف الخيال الرومانسى المستوفز أفرادا أخر إلى هذه العائلة الليلية مثل :
(الشتاء ـ البرد ـ المطر ـ الخريف ـ الرعد ـ البرق ـ العواصف ـ الرياح ـ الكهف)

ويكفى فى الشعر الرومانسى أن نعلم أن الغروب أو الليل بعامة هو موضوع النص أو مما يعرّج عليه الشاعر لنتوقع الالتقاء بهذه الألفاظ أو مراد فاتها ما فاتنا ذكره ، حتى

أصبحت هذه الألفاظ تؤلف معجما صغيرا أو عائلة لغوية صغيرة خاصة بالليل لكثرة استعمالها معه .

من أمثلة ذلك ما نراه فى قول فدوى طوقان : (٦٨)

وفى وحشة الليل ، ليل المواجع ، ليل المواجد ، ليل الهموم
وللريح ولولة فى الشعاب ، وللرعد جلجلة فى الغيوم

وفى قول صلاح عبد الصبور : (٦٩)

ذات مساء مظلم كأنه سرداب
أطل من كوي الجدار وجهه المرتاب
والريح حول كوخه قارصة مدمدمهْ
والرعد قاصف الصدى ، مدينة منهدمهْ
والبرق ضاء فى السما أهلة أهلهْ

والليل عند الشابى عادة ما يستدعى " الكهف " وكأنهما متلازمان فى خياله . يقول لقلبه : (٧٠)

أنت ليل معتم تندب فيه الباكياتْ
أنت كهف مظلم تأوى إليه البائساتْ

ويصف ما يرين عليه من تعاسة : (٧١)

فى ليل الوحدة مسراه وبكهف الوحدة مرقده

كما يقول أبو شادى : (٧٢)

أحيا بأشجان تميد رواسيا وتميت كل رجائى البسام
فإذا فررتُ من الضياء هنيهة أجفلت ثم قصدت كهف ظلامى

كما نراه أخيرا مرتبطا بالليل فى قول محمد إبراهيم أبو سنة : (٧٣)

أخاصم النهار فى انتظارك الطويل
أبيت فى الأشواك (فى كهوف الليل)
يمدنى توقعك بالخفق فى الفؤاد
والدم فى العروق

والأمثلة كثيرة لمن أراد أن يتحقق من سعة انتشار هذه الظاهرة اللغوية .

ولعلنا لا نجاوز القصد إذا تطرقنا فى حديثنا عن هذه الظاهرة إلى الأدب الشعبى وقلنا إن من المصاحبات اللفظية الهامة التى اعتادت الأذن سماعها مع (الليل) فيما

يسمى من الشعر الشعبى بـ " المّوال " لفظ " العين " ، فالمنشد يستهل الموال عادة ، أو يردد فى أثنائه بين حين وآخر عبارة (يا ليل يا عين) مستثيرا بها عواطف السامعين . والعين تعني الدموع وكثرة البكاء . وهذا الجمع الدائم بين اللفظين : الليل والعين إقرار بما يلقاه المحبون فى الليل من إحساس بالحرقة والوجد فضلا عما يعانيه ذوو الأرزاء من هموم تستمطر شؤونهم غزير الدمع .

* * *

هوامش الفصل الثانى

١ - ديوان نازك الملائكة ج ١ ص ٥٤ .

٢ -ديوان ملك عبد العزيز ص ١٣١ .

٣ - المرجع السابق ص ٨٣ .

٤ - ديوان ناجى ص ٦٨ .

٥ - ديوان الشابى ص ١١٦ .

٦ - د. عزت شندى موسى : رحلة العمر (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٨ م) ص ١٤٥ .

٧ - ديوان صلاح عبد الصبور مج ٣ ص ٥٠٧ .

٨ - ديوان فدوى طوقان ص ١٤ .

٩ - د. عزت شندى موسى : رحلة العمر ص ١٤٥ .

١٠ - عزيز أباظة : أنّات حائرة ص ٢٩ .

١١ - ديوان الشابى ص ١٦٦ .

١٢ - أبو شادى (أحمد زكى) أطياف الربيع (القاهرة - بدون مكان النشر ١٩٣٣ م) ص ٧٠ .

١٣ - المرجع السابق ص ٤٢ .

١٤ - المرجع السابق ص ٤٨ .

١٥ - ديوان شكرى ص ٢٦٠ .

١٦ - ملك عبد العزيز : الأعمال الكاملة ص ٢٩٩ .

١٧ - الخليل مطران : ديوان الخليل (القاهرة : مطبعة دار الهلال ١٩٤٩) ص ١٤٤ .

١٨ - ديوان نازك الملائكة ج١ ص ٥٣٩ .

١٩ - ديوان إيليا أبو ماضى ص ٧٦٤ .

٢٠ - المرجع السابق ص ٦٠٦ .

٢١ - المرجع السابق ص ٦٠٢ .

٢٢ - ديوان السياب ص ٢٥٧ .

٢٣ - ديوان نازك الملائكة ج ١ ص ٢٠٩ .

٢٤ - المرجع السابق ص ١٤٠ .

٢٥ - الشوقيات ج ٢ ص ١٢٢ .

٢٦ - ديوان حافظ إبراهيم ج ١ ص ٢٩٢ .

٢٧ - ديوان إيليا أبو ماضى ص ١٢١ .

٢٨ - ديوان نازك الملائكة ج ١ ص ٦٤٦ .

٢٩ - المرجع السابق ج ٢ ص ١١٤ .

٣٠ - ديوان نازك الملائكة ج ١ ص ٦٤٦ .

٣١ - المرجع السابق ج ١ ص ٥٠٧ .

٣٢ - المرجع السابق ج ١ ٢٠٦ .

٣٣ - المرجع السابق ج ٢ ص ٦٠ .

٣٤ - ديوان حافظ إبراهيم ج ٢ ص ٢١٨ .

٣٥ - أحمد رامى ، ديوان رامى (بيروت : دار العودة ١٩٨٧) ص ٢١٢ .

٣٦ - جبران خليل جبران : الأعمال الكاملة ص ٤١٧ .

٣٧ - ديوان نازك الملائكة ج ٢ ص ١٣٨ .

٣٨ - المرجع السابق ج ١ ص ٥١٣ .

٣٩ - المرجع السابق ج ١ ص ٤٩٦ .

٤٠ - محمد إبراهيم أبو سنة ، أجراس المساء (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م) ص ١٠٧ .

٤١ - جمهرة أشعار العرب ص ٢٣١ .

٤٢ - ديوان المتنبى ج ٣ ص ٥٩ .

٤٣ - ديوان نازك الملائكة ج ١ ص ٢١ .

٤٤ - المرجع السابق ج ٢ ص ٤٩٢ .

٤٥ - المرجع السابق ج ٢ ص ١١٨ .

٤٦ - المرجع نفسه ج ٢ ص ١٨٧ .

٤٧ - ديوان ناجى ص ١٤ .

٤٨ - ديوان نازك الملائكة ج ١ ص ١٨٢ .

٤٩ - المرجع السابق ج ١ ص ١٤٣ .

٥٠ - ديوان ناجى ص ١٩٦ .

٥١ - المرجع السابق ، على الترتيب : ص ٣٣ و ص ٨٠ و ص ٤٣ .

٥٢ - د. عزت شندى موسى رحلة العمر ص ١٥١ .

٥٣ - المرجع السابق ص ٢٤١ .

٥٤ - ديوان ناجى ص ٣١ .

٥٥ - ديوان الشابى ص ٧٨ .

٥٦ - ديوان فدوى طوقان ص ٧٢ .

٥٧ - محمد عبد المعطى الهمشرى ، ديوان الهمشرى جمع صالح جودت (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ م) ص ١٧٦ .

٥٨ - جمهرة أشعار العرب ص ٢٨٥ .

٥٩ - المرجع السابق ص ٣٠١ .

٦٠ - المرجع السابق ص ٣١٣ .

٦١ - المرجع السابق ص ٣٤٥ .

٦٢ - المرجع السابق ص ٢٤٩ .

٦٣ - المرجع السابق ٢٣١ .

٦٤ - ديوان المتنبى ج ٤ ص ١٠٢ .

٦٥ - ديوان الشابى ص ٤٠٦ .

٦٦ - ديوان الشابى ص ٧٧ .

٦٧ - ديوان فدوى طوقان ص ٥٥ .

٦٨ - ديوان فدوى طوقان ص ١٤٥ .

٦٩ - ديوان صلاح عبد الصبور مج ١ ص ٥٤ .

٧٠ - ديوان الشابي ص ٢٢٨ .

٧١ - ديوان الشابى ص ٢٦٥ .

٧٢ - أبو شادى ، أطياف الربيع ص ٣٥ .

٧٣ - أبو سنة ، أجراس المساء ص ١٠ .

مراجع البحث

١ - إبراهيم ناجى ، ديوان ناجى ط ٣ (بيروت دار الشروق ١٩٨٨ م) .

٢ - أحمد رامى ، ديوان رامى (بيروت : دار العودة ١٩٨٧ م) .

٣ - أحمد شوقى ، الشوقيات ج ١ + ج ٢ (القاهرة : مطبعة الاستقامة ـ ١٩٥٨ م) .

٤ - إيليا أبو ماضى ، ديوان إيليا أبو ماضى (بيروت : دار العودة بدون تاريخ) .

٥ - البستانى (بطرس) ، منتقيات أدباء العرب ج ٤ (بيروت : دار الجيل بدون تاريخ) .

٦ - بشار بن برد ، ديوان بشار شرح محمد الطاهر بن عاشور ج ٢ (القاهرة : مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٤ م) .

٧ - جبران خليل جبران ، الأعمال الكاملة باللغة العربية تقديم ميخائيل نعيمة (بيروت دار العودة ١٩٨٣ م) .

٨ - حافظ إبراهيم ، ديوان حافظ إبراهيم ج ١ + ج ٢ ضبط وشرح أحمد أمين بالاشتراك (بيروت : دار العودة بدون تاريخ) .

٩ - الخليل مطران ، ديوان الخليل ، (القاهرة : مطبعة دار الهلال ١٩٤٩ م) .

١٠ - رفيق الناى ، الشراع الممزق ، نسخة بالآلة الكاتبة لدى الباحث .

١١ - الزوزنى (أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين) شرح المعلقات السبع (القاهرة : مكتبة القاهرة ١٩٦١ م) .

١٢ - ابن زيدون (أحمد بن عبد الله) ديوان ابن زيدون شرح كامل كيلانى بالاشتراك (القاهرة مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٢ م) .

١٣ - أبو زيد (أحمد بن أبى الخطاب القرشى) جمهرة أشعار العرب شرح على فاعور (بيروت : دار الكتب العلمية ١٩٨٧ م) .

١٤ - أبو سنة (محمد إبراهيم) أجراس المساء (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م) .

١٥ - السياب (بدر شاكر) ديوان السياب مج ١ تقديم ناجى علوش (بيروت : دار العودة ١٩٧١ م .

١٦ - أبو شادى (أبو القاسم) ديوان الشابى تقديم د. عز الدين إسماعيل (بيروت دار العودة ١٩٧٢ م) .

١٧ - أبو شادى (أحمد زكى) أطياف الربيع (القاهرة : لم يذكر مكان النشر ١٩٣٣م)

١٨ - صلاح عبد الصبور ، ديوان صلاح عبد الصبور مج ١ ومج ٢ ط ١ (بيروت دار

العودة ١٩٧٢ م)
١٩ - الضبي (محمد بن يزيد بن يعلى) المفضليات ط ٤ تحقيق أحمد محمد شاكر بالاشتراك (القاهرة : دار المعارف ـ بدون تاريخ) .
٢٠ - العباس بن الأحنف ، ديوان ابن الأحنف (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٠ م) .
٢١ - عباس محمود العقاد ، ديوان العقاد (بيروت المكتبة العصرية ـ بدون تاريخ) .
٢٢ - عبد الرحمن شكرى ، ديوان شكرى جمع وتحقيق نيقولا يوسف ط ١ (الإسكندرية : منشأة المعارف ١٩٦٠ م) .
٢٣ - عزت شندى موسى ، رحلة العمر (إلقاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ م)
٢٤ - عزيز أباظة . أنات حائرة (القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٥٦ م) .
٢٥ - على محمود طه ، ديوان على محمود طه (بيروت : دار العودة ١٩٧٢ م) .
٢٦ - فدوى طوقان ، ديوان فدوى طوقان ط ١ (بيروت : دار العودة ١٩٧٨ م) .
٢٧ - أبو فراس (الحارث بن سعيد) ديوان أبى فراس رواية ابن خالويه (بيروت : دار صادر ١٩٦١ م) .
٢٨ - المتنبى (أحمد بن الحسين) ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى تحقيق مصطفى السقا بالاشتراك ، أربعة أجزاء فى مجلدين (بيروت : دار المعرفة ١٩٧٨ م) .
٢٩ - مجنون ليلى (قيس بن الملوح) ديوان مجنون ليلى تحقيق عبد الستار فرج (القاهرة مكتبة مصر بدون تاريخ) .
٣٠ - ملك عبد العزيز الأعمال الكاملة (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٩٠ م) .
٣١ - النابغة الذبيانى (زياد بن معاوية) ديوان النابغة الذبيانى تحقيق محمد أبو الفضل (القاهرة دار المعارف ١٩٧٧ م) .
٣٢ - نازك الملائكة ، ديوان نازك الملائكة مج ١ مج ٢ ط ٢ (بيروت : دار العودة ١٩٨١ م) .
٣٣ - الهمشرى (محمد عبد المعطى) ديوان الهمشرى جمع صالح جودت (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م .